روائع إقبال

بقلم

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام بلكهنؤ - الهند
وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق - سوريا




روائع إقبال

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

١٣٩٨ ﻫ — ١٩٧٨ م



روائع إقبال

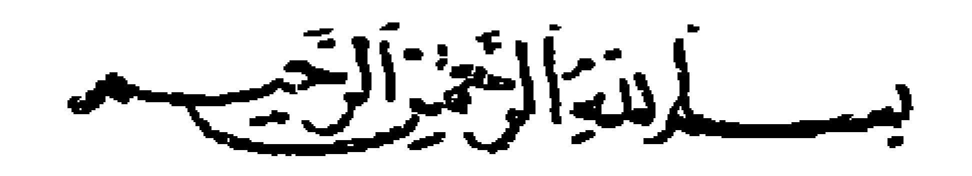
بقلم

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام بلكهنؤ - الهند
وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق - سوريا

الناشر




بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد ، فقد ظهرت الطبعة الأولى لكتابنا « روائع إقبال » سنة ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠ م ، أصدرتها دار الفكر بدمشق ، وقد تلقى هذا الكتاب بقبول عظيم ، وكان من كتب الشباب المسلمين المثقفين ، الحبيبة الأثيرة المفضلة ، فكثرت قراءتهم له ، وعنايتهم به ، حتى وعته ذاكرتهم ، وذلت به ألسنتهم وأقلامهم ، وحفظ كثير منهم قطعا وصفحات ، وكثر اقتباسهم منه ، واستشهادهم به في أحاديثهم ومقالاتهم .

وزدت فيه فصولا مهمة ، زادته قوة وقيمة ، ونشرته دار الفتح في بيروت سنة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م ، وحظى بالقبول ، وانتشر في المدة القريبة في العواصم العربية والأوساط العلمية والأدبية ، وكان من المتوقع المضمون أن تصدر عدة طبعات في مدة قليلة ، ولكن منع عن ذلك

أسباب ترجع إلى بعد المؤلف عن مركز حركة الطبع والنشر فى الشرق العربى ، واشتغاله بأعمال تأليفية أخرى ، وعدم نشاط كثير من المكتبات العربية فى نشر الفكرة الاسلامية الصحيحة ، وخضوعها للنزعة التجارية ، وتأخرت الطبعة الثالثة حتى وفق الله المؤلف لتصحيحه وتنقيحه ، ووفق دار القلم فى الكويت لإصدار هذه الطبعة المزيدة المنقحة .

إن موضوع شعر إقبال وفلسفته من الموضوعات التى نضجت واحترقت ، ولا أعرف شخصية ، ولا مدرسة فكرية فى العصر الحديث تناولها الكتاب والمؤلفون والباحثون والمحققون بالتأليف والتحقيق ، مثل ماتناولوا هذا الشاعر العظيم ، فبحثوا عن كل جانب من جوانب حياته ، وشعره وفكره وفلسفته ، حتى تكونت فى هذا الموضوع مكتبة زخرت بالكتب والرسائل والبحوث ، ومؤلفات فى كبرى لغات العالم وأرقاها ، وقد جاء فى مقال قرىء فى مهرجان إقبال المئوى المنعقد فى مدينة « لاهور » تحت إشراف حكومة باكستان فى ديسمبر سنه ١٩٧٧ م ، أن عدد ماصدر عن « إقبال » من الكتب والرسائل فى لغات العالم المختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠)(١) ، مابين كتاب ورسالة ، هذا عدا مانشر عنه من البحوث والمقالات ، وما ألقى من أحاديث ومحاضرات فى مجالات وحفلات مختلفة ، وبذلك فاق « إقبال » على

(١) نقلا عن مقال للاستاذ صباح الدين عبد الرحمن مدير دار المصنفين ، أعظم كراه ، الهند ، على أثر عودته من المؤتمر فى مجلة « معارف » الشهرية شهر فبراير ١٩٧٨ م

«شكسبير» الإنجليزي و«دانتي» الإيطالي و«طاغور» الهندي، فلم يكتب عن أحد معشار ما كتب عنه، وفي كل سنة فيض من البحوث والمقالات في الجامعات العصرية، والمجامع العلمية، والنوادي الأدبية، ولايزال في مد وزيادة.

لذلك كان عندي شك كبير حين شرح الله صدري لنشر «روائع إقبال» أن يسترعي هذا الكتاب اهتمام المشغوفين بهذا الموضوع فضلا عن أصحاب الاختصاص والباحثين فيه؛ فإنني لم أكن في عهد من العهود كاتبا مرموقا، أو باحثا صاحب اختصاص في هذا الموضوع، يشار إليه بالبنان. وكانت كتابتي في هذا الموضوع شبه مغامرة علمية أو جرأة أدبية، وكانت أكثر مؤلفاتي في موضوعات تاريخية وعلمية ودينية، وكانت محاولة نقل هذا الشعر إلى اللغة العربية تزيد المهمة دقة وخطورة، لذلك حين طلب بعض الزملاء الفضلاء أن ينقلوا كتاب «روائع إقبال» إلى اللغة الأردية — أغنى لغات العالم في حركة التأليف عن إقبال — عارضت هذه الفكرة وشعرت بأنه إذا نقل إلى أردو ظهرت تفاهة الكتاب، وافتضح مؤلفه، وأقل ما كنت أتوقعه أن يقول الناس في شبه القارة الهندية «بضاعتنا ردت إلينا» وأي حاجة دعت إلى ترجمة هذا الكتاب في الأردية وقد أتخمت بالمؤلفات بين صغير وكبير في هذا الموضوع.

ولكني فوجئت بما رأيته من تقدير كبير وثناء عاطر من كبار الأساتذة في شبه القارة الهندية، الذين يعتبرون حجة في فهم شعر إقبال،

وتفسيره ، والكشف عن دقائقه ، كالأستاذ الكبير صاحب مدرسة أدبية خاصة فى الأردو البروفسير رشيد أحمد الصديقى رئيس قسم « أردو » فى جامعة على كره الاسلامية ، فقد قدم الطبعة الثانية لكتاب « نقوش إقبال » (ترجمة روائع إقبال) ، واعترف فى مقدمته بأن هذا الكتاب له مكانة خاصة فيما كتب عن إقبال وأن مؤلفه قد أنصف الموضوع وأخلص له ، وطلب منه أن يستمر فى الكتابة عن إقبال ، ويتحف العالم العربى والاسلامى بالمزيد الجديد .

وقال الأستاذ الناقد ماهر القادرى شاعر باكستان الكبير ، ومنشىء مجلة « فاران » الصادرة من كراتشى ، فى كلمته عن هذا الكتاب « إن فكر إقبال وروحه قد امتزجا بما جاء فى هذا الكتاب وسريا فيه كالرائحة فى الرياحين والنور فى الكواكب النيرة » .

وكانت أكبر شهادة بأن المؤلف كان التوفيق حليفه فى فهم شعر إقبال والإنصاف له هى شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل المرحوم العلامة محمد إقبال) الفاضل الذى أسمى محمد إقبال أحد دواوينه الكبار وهو « جاويد نامه » — باسمه ، فقد قال بعد اطلاعه على « نقوش إقبال » فى كلمته التى كتبها عن هذا الكتاب :

« ولقد عرض مؤلف هذا الكتاب جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال فى أسلوب أكبر ظنى أنه يوافق شعور محمد إقبال نفسه ، أو كان يؤثره لشرح أفكاره » .

إن هـــذه الاعترافات التى لم يكن المؤلف يتوقعها من أصحاب الاختصاص والزعامة فى فهم شعر إقبال ، وعرضه ، شجعت المؤلف على مواصلة هذه الرحلة وعرض مجهوده العلمى والأدبى على العالمين العربى والإسلامى ، وقد ظهرت أربع طبعات لـ « نقوش إقبال » فى مدة قصيرة ، والطبعة الخامسة على وشك الصدور ، وظهرت الترجمة الانكليزية باسم « Glory of Iqbal » بقلم كاتب الانجليزية الكبير الدكتور محمد آصف القدوائى .

وها هى الطبعة الثالثة لـ « روائع اقبال » فى أيدى القراء ، نرجو أن تأخذ مكانها فى المكتبة العربية ، وفى نفوس الشباب والمثقفين والعلماء والدارسين .

ابو الحسن على الحسنى الندوى
المجمع الإسلامى الهندى
ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

١٢ ربيع الأول ١٣٩٨ هـ
٢٠ فبراير ١٩٧٨ م

صلتي بمحمد إقبال وشعره

نشأت في عصر وفي بيئة بلغ فيها شعر محمد إقبال قمة مجده وشهرته ، وفي جيل فتن به أكثر مما فتن بشعر شاعر وأدب كاتب . فلا عجب إذا أعجبت به صغيراً وعنيت به كبيراً .

إن أسباب الإعجاب بشعر محمد إقبال كثيرة ، وللمعجبين به أن يتحدثوا عن أسباب إعجابهم ، وهي ترجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن النفس ، فالإنسان إنما يحب نفسه ويطوف حولها ويعيش فيها ويحب كل ما وافق نفسه ، وترجم عن ضميره ؛ ولا أبرىء نفسي ، فربما أحببت شعر محمد إقبال لأني رأيته يوافق هواي ، ويعبر عن ضميري وخواطري ، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري ، ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري .

إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو : الطموح ، والحب ، والإيمان . وقد تجلى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم مما

تجلى فى شعر معاصر ، ورأيت نفسى قد طبعت على الطموح والحب والإيمان وهى تندفع اندفاعاً قويا إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح ، وسمو النفس ، وبعد النظر ، والحرص على سيادة الإسلام ، وتسخير هذا الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، ويغذيان الحب والعاطفة ، ويبعثان الإيمان بالله والإيمان بمحمد ﷺ ، وبعبقرية سيرته ، وخلود رسالته ، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها .

إنى أحببته وشغلت به كشاعر « الطموح والحب والإيمان » وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة ؛ وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها ؛ وكداعية إلى المجد الإسلامى وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين ، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية .

قرأت شعره فى الصبا وفى عنفوان شبابى ، وحاولت أن أنقل بعض قطعه الأدبية إلى العربية . ولم أكن قد قرأت له فى ذلك العهد إلا مجموعة شعره « بانك درا » ، وقد صدرت له دواوين فارسية لم أكن قد قرأتها وتذوقتها فى ذلك الحين ، لضعف ثقافتى الفارسية . وكانت زيارتى الأولى له فى سنة ١٩٢٩ م .

كنت فى السادسة عشرة من عمرى ، وقد قدر لى أن أزور لاهور ، بلد العلم والثقافة فى الهند — غير المنقسمة — ومقر الشاعر العظيم

وفى يوم صائف شديد الحر من أيام أيار الأخيرة أخذنى الدكتور عبد الله الجغتائى — أستاذ الفن الإسلامى فى جامعة بنجاب اليوم — إلى محمد إقبال ، وقدمنى إليه وذكر شغفى بشعره ، وذكر والدى مولانا السيد عبد الحى الحسنى(١) الذى كان يعرفه محمد إقبال ويعرفه الأدباء والمثقفون بكتابه العظيم «كل رعنا» ، تاريخ الشعر والشعراء فى الهند الذى كان قد صدر حديثا ولفت الأوساط الأدبية وأثار الاهتمام فيها . وقدمت إليه ترجمتى لقصيدته البديعة «القمر» فتصفحها محمد إقبال ، ووجه إلى أسئلة عن بعض شعراء العربية يختبر بها دراستى وثقافتى ، وانتهى المجلس ورجعت معجبا بتواضع الشاعر العظيم وبساطة مظهره وعدم تكلفه فى المعيشة والحديث .

وبقيت بعد ذلك أعواما طوالا من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٧ أزور لاهور كثيراً وأقضى فيها أسابيع وشهوراً ، ولا أحرص على زيارة الشاعر العظيم ثقة ببقائه ووجوده — وكم خدع هذا أناسا — وقد أعان على ذلك زهدى فى زيارة العظماء وعكوفى على الدراسات والأشغال العلمية فى لاهور .

---

(١) مؤلف كتاب «نزهة الخواطر» فى تراجم أعيان الهند — غير المنقسمة — فى ثمانية مجلدات كبار ، ظهرت سبعة منها من دائرة المعارف ، بحيدر آباد ، الهند . ونشر المجمع العلمى العربى بدمشق كتاباً له «الثقافة الإسلامية فى الهند» قريباً ، توفى فى سنة ١٣٤١ هـ .

وقد صدر فى هذه المدة ديوانان جديدان له فى أردو — بعد فترة طويلة ، انقطع فيها عن الشعـــر فى أردو ، وأثر الفارسية لرسالته وشعره — كان لهما دوى عظيم فى الأوساط الأدبية والإسلامية ، وشاعريته فيهما أقوى ، وفكرته أنضج وأحصف ، ورسالته أوضح . وقد قدر لى أن أقرأ « ضرب كليم » وأتذوقه أكثر من « بال جبريل » وإن كان من المقدر والمقرر أن يكون إعجابى بـ « بال جبريل » وعنايتى به بعد فى الترجمة والنقل ، أكثر وأعظم .

كنت مدرساً فى دار العلوم التابعة لندوة العلماء ومقيماً مع أخى الأستاذ فقيد اللغة العربية فى الهند مسعود الندوى ، منشىء مجلة « الضياء » العربية . وكنا نتناشد شعر إقبال . وكان الأستاذ مسعود من شيعة إقبال ومن كبار المتحمسين له ، وكان يغيظنا أن طاغور أشهر فى الأقطار العربية من إقبال ، وإعجاب إخواننا العرب والأدباء فى مصر وسورية لشعره أكثر ، وكنا نعد ذلك تقصيراً منا فى تعريف شعر إقبال ، وكلما رأينا تنويهاً بشعر طاغور وإطراءً له فى مجلة عربية — وما أكثر ما كنا نرى ذلك فى المجلات العربية — قوى عزمنا على ترجمة شعر إقبال ، ورأيناه أمانة فى أعناقنا .

وقد قدر الله أن أجتمع بالشاعر العظيم قبل وفاته بشهور ، وأن تكون لى معه جلسة طويلة تاريخية . كان ذلك فى اليوم السادس عشر من رمضان عام ١٣٥٦ . (٢٢ تشرين الثانى — نوفمبر — سنة ١٩٣٧ م)

زرته فى منزله فى الصباح . وكان معى عمى الأستاذ الكبير السيد طلحة الحسنى(١) وابن عمى السيد إبراهيم بن إسماعيل الحسنى . وكان معتكفاً فى بيته فى مرض طال به وأضناه ، وكان مرضه الأخير الذى توفى فيه ؛ صادفنا من نفسه نشاطاً وطيباً ، أو نشط بقدومنا — لست أدرى — وفاضت قريحته ، فطالت الجلسة وطابت حتى استغرقت نحو ثلاث ساعات ، والخادم العجوز يقاطعه حينا بعد حين إشفاقا على صحته من طول الجلوس وكثرة الحديث ، فيعتذر ويوقفه ، واسترسل فى الكلام وأفاض وتحدث عن كل موضوع ، تحدث عن الشعر العربى القديم ، وتحدث عن اعجابه بصدقه ، وواقعيته ، وما يشتمل عليه من معانى البطولة والفروسية ، وتمثل ببعض أبيات الحماسة ، وذكر أن الإسلام أثار فى أتباعه روح الكفاح وحب الواقع ، وأن علوم الطبيعة تلتقى مع الإسلام على الجد والعمل والبعد عن البحوث الفلسفية التى لا جدوى فيها ، وقد ظلت هذه الروح متغلغلة فى المجتمع الإسلامى قرنين ، فقد بقى متمسكا بالعقيدة والعمل والسيرة والخلق ، حتى طغت عليه الفلسفة الإغريقية ، وتحدث عن الفلسفة الإلهية ، وكيف شغلت الشرق واستهلكت قواه ، وذكر أن أوروبا إنما نهضت وملكت العالم لما ثارت على هذه الفلسفة ما بعد الطبيعة ، وبدأت تشتغل بعلوم الطبيعة المجدية المنتجة ، ولكن قد حدث وثار من المسائل فى هذا العصر ما يخاف معه أن ترجع أوروبا القهقرى ، وذكر أن العقل العربى كان أقوى على إساغة الإسلام إساغة

(١) أستاذ الكلية الشرقية لجامعة بنجاب سابقاً ومن كبار العلماء المثقفين .

صحيحة وأجدر بحمل أمانته ، وقد أصيب الإسلام فى إيران بما أصيبت به المسيحية فى أوروبا ، فقد أثرت العقلية الآرية فى كلتا الديانتين .

وتحدث عن التصوف وانتقد اغراق بعض رجاله فى التخيل والتطرف ، وتطرق الحديث إلى تواجد بعض المتصوفين وطربهم للسماع ، فقال إن الصحابة كان يتملكهم الطرب والاهتزاز والأريحية على صهوات الجياد فى ساحة الجهاد .

وتحدث عن التجديد الإسلامى فى الهند ، فأثنى على الشيخ أحمد السرهندى والشيخ ولى الله الدهلوى والسلطان محى الدين أورنك زيب ، وقال إننى أقول دائما : لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهند وحضارتها وفلسفتها الإسلام .

وتحدث عن باكستان (١) وقال : إن أمة لا تملك أرضا تستند إليها لا دين لها ولا حضارة ، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة . وإن باكستان هى الحل الوحيد للمشاكل التى يواجهها المسلمون فى هذه القارة الهندية ، وهى الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية ، وأشار إلى نظام الزكاة وبيت المال فى الإسلام .

وبمناسبة مستقبل المسلمين فى الهند ، قال : أشرت على بعض أمراء

---

(١) لا يغربن عن البال أن باكستان إنما كانت فكرة وحلماً يومئذ وإنما قامت سنة ١٩٤٧ م بعد وفاة صاحب فكرتها بنحو عشر سنين.

المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الإسلام فى غير المسلمين ، ونشر الثقافة والآداب الإسلامية فى المسلمين ، وإحياء اللغة العربية وأدبها فى هذه البلاد ، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عالمى ، وإنشاء صحفية انجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين ، حتى يحسب لهم حساب ويرهب جانبهم ، وتكون لهم مكانة عالمية تخشى وترجى ، وإن فى ذلك صيانة لدولتهم وضمانا لكيانهم ، ولكن الأمراء المسلمين لم يعرفوا أهمية المسألة ، ودقة موقفهم ، والأخطار التى تحدق بهم . وكان يشكو من قصر نظرهم ، وضعف تفكيرهم ، واشتغالهم بنفسهم(١) .

ورأينا الدكتور راغبا فى الحديث ، راغبا فى بقائنا معه لوقت أوسع ، ورأينا من المصلحة أن نستأذنه فى الانصراف حتى يستريح ، وسلمنا عليه وخرجنا من عنده ، وسافرت من لاهور ذلك اليوم أو من غد .

وأذكر أنى استأذنته فى ترجمة شعره إلى العربية فى ذلك المجلس فتكرم بذلك ، وأنشدته بعض قصائده من «ضرب كليم» ، وذكر محمد إقبال الأستاذ عبد الوهاب عزام وأنه ينوى ترجمة شعره .

وبعد ستة أشهر فوجئنا بنبأ وفاته فى ٢١ ابريل من عام ١٩٣٨ م . فصح العزم وانعقدت النية على ترجمة حياته وترجمة شعره . وكتبت فى

---

(١) ألغيت هذه الامارات بعد التقسيم بجرة قلم ، وذهب الامراء «وأصحاب السمو» الذين لم ينتفع الاسلام والمسلمون بثروتهم وكنوزهم . «فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين» .

ذلك إلى الأخ مسعود ، وكان يومئذ فى « بتنه » عاصمة ولاية بهار ، وتبادلنا التعازى وأردنا أن نتعاون على هذه المهمة ، فأبدى استعداده وعزمه على ترجمة حياته ، وتقديم فكرته ، وحثنى على ترجمة شعره ، وذكر أن قريحته لا تطاوعه فى الترجمة . وشرعنا فى العمل ، فكتب الأستاذ مقالة مؤثرة رقيقة فى « الفتح » الغراء التى كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب فى القاهرة ، وكتبت مقالة فى ترجمة حياته أذيعت بعد سنين من محطة الإذاعة فى الحجاز . وتوقف عن العمل لأشغال تعليمية وتأليفيـــة مرهقة ، وكانت فترة طويلة دامت بضع عشرة سنة .

وفى عام ١٩٥٠ م . سافرت إلى الحجاز ومصر وسورية ونشطت فى هذه الرحلة ، التى استغرقت أكثر من عام ، لكتابة عدة مقالات عن إقبال وفكرته وشعره ، وألقيتها محاضرات فى دار العلوم وفى جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) ومقالة كتبتها فى دمشق عام ١٩٥٦ م ، فى زيارتى الثانية لسورية . هى مقالة « محمد إقبال فى مدينة الرسول » أذيعت من محطة الاذاعة السورية .

وفتر العزم لترجمة شعره ، خصوصا وقد علمت أن الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام عاكف على ترجمة شعره بالشعر . وهو من أجدر الناس بهذا العمل ، وأقدرهم عليه ، لجمعه بين الثقافتين الفارسية والعربية ، ولانسجامه الفكرى مع إقبال وعقيدته ودعوته . وقد

ظهرت له عدة دواوين(١) . وقد ذكر لى بعض الاصدقاء ، أنها لا تؤثر فى نفس القارىء ولا تثيرها إثارة الشعر الرقيق . ولا تعطى صورة كاملة واضحة لفكرة إقبال ورسالته . ولا تبرر شهرته وما قيل عنه . وتصفحت بعض هذه الدواوين فرأيت أن ذلك لا يرجع إلى ضعف فى الترجمة ، ونقص فى العلم والفهم . وهذه الدواوين برهان ساطع على مقدرة الأستاذ عزام الغريبة على النظم العربى ، واقتداره على القوافى الصعبة ، ولكنه لم يكن محسناً إلى نفسه ومواهبه ، يوم قرر أن يترجم الشعر بالشعر ؛ وذلك الذى أفقد شعر إقبال قوته وانسجامه ، وأفقد الترجمة بهاءها ورواءها ، وتأثيرها ؛ وأضفى على هذا العمل الأدبى المظيم شيئا من الغموض ، قد يحول بين القارىء وبين التذوق والتمتع بالشعر الجميل ، والمعانى الرقيقة ، وكان الأمثل للأستاذ عزام — وهو من أدباء العربية ومن كبار المنشئين فيها ، ومن البارعين فى اللغة الفارسية من أبناء العرب — أن يتشرب فكرة إقبال ثم يصبها فى القالب العربى كما فعل ذلك فى بعض مقالاته التى ظهرت فى « الرسالة » و « الثقافة » وكانت بارعة مؤثرة ، ولكل لغة جو خاص ، ونفسية خاصة ، ومنهج تفكير ، وأسلوب تعبير ، وتشبيهات ، ومجازات تتعلق ببيئتها ومجتمعها وتاريخها ومزاجها ومواسمها وفصولها إذا ترجمت حرفياً فقدت جمالها ومعناها ، ولم تؤد رسالتها .

---

(١) وهى « رسالة المشرق » و « ضرب الكليم » وقد ترجم « أسرار خودى » و « رموز بيخودى » وشيئاً من « جاويد نامة » .

وعلى كل فإن عمل العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام ثروة إسلامية أدبية جليلة ، تستحق كل تقدير وإعجاب وشكر واعتراف . وهى تدل على علو كعبه فى اللغة العربية ، وعلو همته وجودة قريحته ، وإخلاصه ومثابرته ؛ وحبه للإسلام ، والفكرة الإسلامية . وقد كان من سعادة الدكتور محمد إقبال أن يرزق مترجما وترجماناً كالدكتور عبد الوهاب فى علمه وفضله ونبالته ونزاهته ، ولا شك أن روح إقبال مسرورة شاكرة لعمله جزاه الله أفضل جزاء وكافأه على هذه المبرة خير مكافأة .

ولعل الأمد كان يطول على هذه الفترة ، وفتور الهمة فى الترجمة ، وقد أشغل عنها لشواغل وعوائق كثيرة ، ولكن حدث ما جدد فىَّ النشاط وحرك العزم ، وذلك أنى قرأت فى مجلة « المسلمون » التى كانت تصدر من دمشق كلمة رقيقة مخلصة لأديب العربية الكبير وكاتبها القدير ، الأخ الأستاذ على الطنطاوى ، يحثنى فيها على ترجمة بعض قصائد إقبال ليعرف بها مكانة الرجل ، وقوة شاعريته وسمو رسالته ، ويقول فى كتاب مفتوح وجهه إلى (... هل لك أن تختار من شعر إقبال ما يجعلنا نتذوق طعم أدبه ونلم بطريقته ، ونتجلى أسباب عظمته ، فإن كل ما قرأنا من كلامه مترجما إلى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلنا عليه) ... (فهل تضيف يا أخى ! يا أبا الحسن إلى مآثرك هذه المأثرة ، فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة أو تحمل إليهم

زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان وإلى الأدب والإسلام(١)) .

وقد صادف هذا الاقتراح منى هوى ونشاطا ، وأثار القريحة ، التى خمدت وفترت من زمان ، فترجمت قصيدته البديعة « فى مسجد قرطبة » فى جلسة واحدة ، وشعرت باستعداد فى نفسى ورغبة لذيذة فى الترجمة ، لا أستطيع لها دفعا ، وجاءت المقالات تترى ، ونشرت فى بعض المجلات العربية الإسلامية ، واقتصرت فى الترجمة والنقل على الدواوين التى لم يتناولها المرحوم العلامة عبد الوهاب عزام بالتعريب . وكان لديوانه « بال جبريل » أكبر نصيب من هذه التراجم . وقد رتبتها كما كتبت ونشرت .

أما بعد ، فإنى لا أعتقد فى إقبال عصمة ولا قدسا ولا إمامة ولا اجتهاداً فى الدين ، ولا أبالغ فى إجلاله والاستشهاد بأقواله ، كما يبالغ كثير من الكتاب المعاصرين ، والمؤلفين المتطرفين ، إننى أعتقد أن الحكيم السنائى ، وفريد الدين العطار ، والعارف الرومى ، كانوا أرفع منه مكانة بكثير ، فى التأدب بآداب الشرع ، والجمع بين الظاهر والباطن ، والدعوة والعمل . وقد كانت له فى محاضراته التى ألقاها فى « مدراس(٢) » أفكار فلسفية وتفسيرات للعقيدة الاسلامية

---

(١) المسلمون العدد الثالث المجلد السادس .

(٢) مدينة كبيرة فى الهند الجنوبية .

لانوافقه عليها . ولا أعتقد كما يعتقد كثير من الشباب المتحمسين — أنه لم يفقه الاسلام عالم مثله ، ولم يحط بعلومه وحقائقه غيره . إنى لم أزل — والحق أحق أن يقال — فى كل دور من أدوار حياتى وثقافتى معتقداً أنه لايزيد على أن يكون تلميذاً من تلاميذ الثقافة الاسلامية النجباء الأذكياء ، درسها دراسة مخلصة ، وكان لايزال فى حاجة إلى التعمق والرسوخ فيها ، والاستفادة من معاصريه الكبار(١) . وكانت فى شخصيته الكبيرة النادرة جوانب ضعف لا تتفق مع عظمته العلمية ، وعظمة رسالته ، وشعره ، لم يجد وقتا كافيا وجواً ملائما لإكمالها وتسديدها .

إن جل ما أعتقده أن إقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق فى هذا العصر . أنطقه الله الذى أنطق كل شيء . أنطقه كما أنطق الشعراء والحكماء قبل عصره ، وفى غير عصره . إنى أعتقد أنه كان صاحب فكرة واضحة وعقيدة راسخة ، عن خلود الرسالة المحمدية وعمومها ، وعن خلود هذه الأمة وصلاحيتها للبقاء والازدهار ، وعن كرامة المسلم وأنه خلق ليقود ويسود ، وعن تهافت المبادىء والفلسفات والدعوات التى ظهرت فى هذا العصر كالقومية والوطنية والشيوعية

---

(١) ولم يزل يستفيد فعلا من العلامة الكبير أنورشاه الكشميرى والاستاذ الكبير العلامة السيد سليمان الندوى ، ورسائله إليه وإلى صديقنا الجليل الأستاذ مسعود الندوى تدل على سماحة نفسه وتواضعه وروحه العلمية .

والرأسمالية . ووجدت فيه من وضوح الفكرة وشدة الاقتناع بها والتحمس لها ، والشجاعة فى نشرها ، وفى نقد هذه الفلسفات . ما لم أجده مع الأسف فى كثير من رجال الدين لعدم اكتناههم بحقيقتها واطلاعهم على نواياها وأهدافها وأسسها وتاريخها .

وأخيراً لا آخراً وجدته شاعر الطموح والحب والايمان ، وأشهد على نفسى أنى كلما قرأت شعره جاش خاطرى وثارت عواطفى وشعرت بدبيب المعانى والأحاسيس فى نفسى وبحركة للحماسة الاسلامية فى عروقى ، وتلك قيمة شعره وأدبه فى نظرى .

يحملنى على نشر هذا الكتاب فى العربية ما أراه من خضوع الشرق الاسلامى العربى للفلسفات الغربية والحضارة المادية خضوعا زائدا . قد بدأ هذا العالم العربى الاسلامى يتأرجح بين الجاهلية القديمة والجاهلية الجديدة . فإما قومية متطرفة وإما شيوعية ملحدة . وقد سيطرت على الأدب والشعر النزعة التجارية أو النزعة السياسية ، أو فكرة المتعة والتسلية . والأديب الذى يعرف رسالته ويخلص لها وينقطع إليها ، ويسخر أدبه ومواهبه لمحاربة الجاهلية ومقاومة الثورة على الرسالات السماوية ، والقيم الخلقية التى انتشرت فى العالم الاسلامى ، وصد تيار الردة الفكرية ، التى اكتسحت الطبقة المثقفة ، يكاد يكون مفقودا .

فى هذا الجو المكهرب بالفكر الغربى ، وفى هذا العالم المتجاهل أو المتناسى لقيمته ، وقوته ، ورسالته ومكانه فى قيادة الامم ، تزداد

قيمة شاعر يولد فى بلاد بعيدة عن مهد الاسلام ، فى سلالة برهمية قريبة العهد بالهداية الاسلامية ، فى بيئة كان يحكم فيها الانجليز وتسود فيها الثقافة الغربية ، يدرس فيها العلوم العصرية ، والآداب الغربية إلى أقصى حدودها ، وفى أعظم مراكزها ، ثم يشتد إيمانه بالرسالة المحمدية ، وحبه وغرامه بشخصية محمد ﷺ ، وثقته بهذه الأمة ومواهبها ومستقبلها ، وتشتد حماسته للاسلام . ويشتد إنكاره لأسس الفلسفة الغربية والحضارة الأوروبية ، ويستخدم عبقريته الشعرية ومواهبه الأدبية فى نشر عقيدته وشعوره ودعوته . ويكون خير مثال للشاعر المؤمن والعالم الداعى والفيلسوف الحصيف . ويحدث هزة فى الأفكار والآداب فى قطر من أعظم الأقطار الاسلامية وأوسعها . ويتجاوز تأثيره إلى أقطار بعيدة ؛ ويسمع لها صدى فى العالم الاسلامى.

ورأينا أنها خير هدية نهديها إلى الجيل الاسلامى الجديد وإلى الشباب العربى الناهض . فنتقدم بهذا الكتاب عسى أن يجدوا فيه مايحرك العزم ، ويفتق القريحة ، ويلهب الغيرة ، ويتجه بالأدب والفكر اتجاها جديدا . والله من وراء القصد .

المجمع الاسلامي العلمي	ابو الحسن علي الحسني الندوي
ندوة العلماء لكهنؤ	٣ ربيع الاول عام ١٣٧٩ هـ

شاعر الإسلام : الدكتور محمد إقبال

حياته وثقافته ، شاعريته وانتاجه

ولد محمد إقبال فى « سيالكوت » مدينة فى بنجاب سنة ١٨٧٧ م وهو سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة فى كشمير . أسلم جده الأعلى قبل مائتى سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف ، وكان أبوه رجلا صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد إقبال فى مدرسة انجليزية فى بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز . ثم التحق بكلية فى ذلك البلد ، حيث تعرف بالاستاذ السيد مير حسن ، أستاذ اللغة الفارسية والعربية فى الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثر فى الشاب الذكى كل تأثير ، وغرس فيه حب الثقافة والآداب الاسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره فى الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضم إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير فى الفلسفة ، وبرز فى اللغة العربية والانجليزية ونال وسامين ، وأخذ شهادة

(B. A.)(١) بامتياز . وفى لاهور اتصلت أسبابه بالاستاذ الانكليزى الشهير « سير ثامس ارنولد » صاحب كتـــاب « دعوة الاسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية فى علي كره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامى والأديب الشهير وقاضى محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشىء أول مجلة علمية أدبية فى لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهى فارسية التركيب ، انجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر فى مجلته سنة ١٩٠١ م . ونظم عدة قصائد أدبية توجد فى مجموع شعره الاول ، وكان لها دوى فى أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع . وفى هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة (M. A.)(٢) فى الفلسفة بامتياز، ونال وساماً وعين على أثره أستاذا للتاريخ والفلسفة والسياسة فى الكلية الشرقية فى لاهور . ثم أستاذا للانجليزية والفلسفة فى كلية الحكومة التى تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعا ، وحاز ثقة وزارة المعارف . ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ م ، حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادة عالية فى الفلسفة وعلم الاقتصاد . ومكث فى عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقى محاضرات فى

---

(١) شهادة متوسطة فى الآداب فى النظام التعليمى الانجليزى الهندى تعادله ليسانس فى مصر وغيرها .

(٢) وهى تعادل « الماجستير » فى مصر .

موضوعات إسلامية ، أكسبته الشهرة والثقة . وتولى فى خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية فى جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه ارنولد . ثم سافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه فى الفلسفة ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائى فى الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة فى لندن ، وتخصص فى المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨ م سالما غانما . ولما مر بصقلية فى طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعا ، وقال قصيدة ، افتتحها بقوله : « إبك أيها الرجل أدمعا لا دمعا ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

ومن دواعى العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين عاما من عمره . وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم . واشتغل الشاعر الفلسفى والاقتصادى الخبير والسياسى الحاذق فى عدة لغات ، بالمحاماة ، لكن ما كان هواه فى المحاماة ، فكان يقضى أكثر أوقاته وجل همه فى تأليف الكتب وقرض الشعر . وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الاسلام » السنوية وينشد فيها قصائده ؛ ومنها « العتاب والشكوى » التى اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حل بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة فى سبيله وفى سبيل الجهاد والاصلاح . ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بين فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم الدين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا تبريرا لما جزوا به من

الخزى والهوان . وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نبك » . وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان فى الأسلوب والمعانى والغرض . وقال « النشيد الوطنى » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار سير المثل ، وصار الأول النشيد الوطنى الوحيد الذى لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية فى الهند ، والثانية أنشودة المسلم التى تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ . وما يوم حليمة بسر ، فكان لها فى نفسية الشاعر أعمق أثر ، وجرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدوا لدودا للحضارة الغربية والامبراطورية الأوروبية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد ، كلها دموع حارة فى سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة فى صدور الأوروبيين . وتتجلى هذه الروح فى جميع ما نظم وقال فى هذه الفترة . فمن قصائده « البلاد الاسلامية » رد على الوطنية ، ودعوة إلى الجامعة الاسلامية ، و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهى فتاة مسلمة استشهدت فى جهاد طرابلس ، ومحاصرة أدرنة) و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى إلى الرسول » وقد نعى فى هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبى ﷺ ، يقول : « أنا برىء من أولئك الذين يحجون إلى أوروبا

ويشدون إليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبدا فى حياتهم ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها « أنه حضر عند النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال : إنها لاتليق بمقامكم الكريم ولكننى جئت بهدية ، وهى زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبى سنة ١٩١٤م ، وحدث ماحدث فانقلب الشاعر داعيا مجاهدا . وحكيما فيلسوفا ، يتكهن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشب من حماسته نيرانا ، ويفجر بإيمانه وثقته أنهارا . وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته . وفى تلك المدة نظم غر قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، منها : « الشاعر والتجول فى الصحراء » و « الحيــــاة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الاسلام » و « طلوع الاسلام » وكلها آية فى الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة . أما « طلوع الاسلام » فهى بيت القصيد فى شعره لايوجد لها نظير فى الشعر الاسلامى فى القوة والانسجام . وقد طبع سنة ١٩٢٤ م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعنى جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيما ، وحظى من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مرارا بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذى انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجا .

وأفق معارفه اتساعا ، وقد انتظمت دعوته ، واتضحت رسالته ، فنشر له عدة كتب فارسية . وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردية ، وهى اللغة الاسلامية التى تلى اللغة العربية فى الأهمية والانتشار فى العالم الاسلامى ، ويتكلم بها قطران مهمان : إيران وأفغانستان ، وتفهم فى الهند . ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان وروسيا وتركيا. ونشر مجموعتين بالأردية . فأما الدواوين الفارسية فهى: «أسرار خودى» يعنى (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودى » (أسرار فناء الذات) و « بيام مشرق » (رسالة الشرق) فى جواب كتاب «جوته» « تحية الغرب » و « زبور عجم» و «جاويد نامه » و « بس چه بايد كرد أى اقوام شرق » (ماذا ينبغى أن تعمله الشعوب الشرقية) و «مسافر» و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) وغير هـذه الكتب محاضرات ألقاها فى مدينة « مدراس » طبعت باسم :

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

ومحاضرات ألقاها فى جامعة كامبردج . وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيما ، وعلقوا عليها أهمية كبيرة . وترجم أكثر كتبه إلى الانكليزية والفرنسية والالمانية والطليانية والروسية ، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الانكليزى الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالانجليزية « أسرار خودى » و « رموز بيخودى » وألفت فى ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته

وانتخب الدكتور رئيسا لحفلة الرابطة الاسلامية (Muelim Leoque) السنوية التى عقدت فى سنة ١٩٣٠ فى « إله آباد » ، وعرض فى خطبته فكرة باكستان أول مرة وانتخب عضوا فى المجلس التشريعى فى بنجاب ، وذهب مندوبا للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) فى مؤتمر المائدة المستديرة الثانى سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ .

وجاءته الدعوة فى لندن من حكومة فرنسا وأسبانيا وايطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى فى « مجريط » محاضرات فى الفن الاسلامى ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة فى التاريخ بعد جلاء المسلمين وذرف على تربته دموعا غزارا . وتذكر العرب الأولين، الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق فى جوه وهوائه أريج حضارتهم . وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأ إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق ، الذى يعد من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده(١) . وكان فى زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ، وقابله السنيور موسولينى وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه طويلا، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها فى شمال أفريقية ، ولكن الشاعر الاسلامى الغيور رفض دعوتها ، وأبى

---

(١) تظهر هذه القصيدة فى هذه المجموعة . . انظر « فى جامع قرطبة » .

أيضا أن يزور جامع باريز ، وقال : إن هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها . وأثناء إقامته بأوروبا أقيمت له عدة حفلات تكريم أقامها له أصدقاؤه وأساتذته فى جامعة كامبردج وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكى فى روما . وفى طريقه إلى الهند عرج على القدس ، واشترك فى المؤتمر الاسلامى الشهير ، وقال فى أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق »(١) .

وفى سنة ١٩٣٢ م لبى دعوة السلطان الشهيد نادر خان ملك أفغانستان فى بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر راس مسعود حفيد سر سيد أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الاسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوى ، وتحدث اليه الملك الفقيد طويلا ، وأفضى اليه بذات صدره وبكيا طويلا . ولما زار قبر السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند ، والحكيم سنائى لم يملك عينيه وافتضح باكيا . وقال قصيدة حكيمة بديعة(٢) وعلى أثر رجوعه من كابل نظم منظومته «مسافر» .

وكان الشاعر يشتكى أدواءً ، يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيرا ، وظل أياما طويلة رهين الفراش . ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ويملى الكتب ، والمقالات ، ويقابل الأصدقاء والزوار والعواد ويحادثهم فى شؤون إسلامية وعلمية . ومما نشر له فى هذه الأيام ، مقالة مستفيضة

---

(١) ظهرت هذه القصيدة فى هذه المجموعة بعنوان « فى فلسطين » .

(٢) انظر : « فى غزنين » .

فى الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس . ومما قال قبل وفاته بأيام : « جنة لأرباب الهمم : وجنة للعباد والزهاد ، قل للمسلم الهندى : أبشر ، فان فى سبيل الله جنة أيضاً » . وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « ليت شعرى ! هل تعود النغمة التى أرسلتها فى الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية قد أظلنى موتى وحضرتنى الوفاة فليت شعرى ! هل حكيم يخلفنى ... ؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً » . وكان ذلك آخر برهان أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير فى حجرة خادمه القديم . على حين غفلة من العواد والأصدقاء والتلاميذ والإخوان فى سائر أنحاء العالم الاسلامى . وغربت هذه الشمس التى ملأت القلوب حرارة ونورا ، قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ م (١)

---

(١) أذيع هذا الحديث من محطة البلاد العربية السعودية عام ١٩٥١ م .

العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال [1]

سادتى وإخوانى ! يسرنى جداً أن أتحدث إليكم عن شاعر الاسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد إقبال ؛ ويزيدنى سروراً واغتباطاً أن يكون هذا الحديث فى مركز تعليمى وأدبى كبير كدار العلوم . وبهذه المناسبة سيدور حديثى اليوم حول دراسة هـــذا الرجل العظيم والمدارس التى تخرج منها والعوامل التى كونت شخصيته .

المدارس الاولى التى تخرج فيها محمد اقبال :

لقد تخرج محمد إقبال من مدرستين ، أما المدرسة الأولى فهى مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلب فى فصولها ودروسها مابين الهند وانجلترا وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين

---

(١) من محاضرة ألقيت فى كلية دار العلوم بالقاهرة فى ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٨/ ٣ /١٩٥١م .

ويرتوى من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامى فى ثقافته الغربية . أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفة ، واجتماع ، وأخلاق ، واقتصاد ، وسياسة ، ومدنية ، غاية ما يمكن لغربى متخصص فضلا عن شرقى متطفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة . هذا إلى توسع فى الآداب الانجليزية والألمانية والشعر الغربى فى مختلف أدواره وعصوره . ودراسة الفكر الغربى فى مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد ، واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامى والتاريخ الإسلامى بالتغنى بآثاره ، ولما فسحا له محل الصدارة العلمية والزعامة الفكرية والعبقرية الاسلامية . ولكل منها شروط دقيقة ومستوى عال ، لايحتله الإنسان بمجرد الدراسة والتفنن فى العلوم . وكثرة التأليف والانتاج . أقول لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها ؛ لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً فى الفلسفة أو علم الاقتصاد أو فى الأدب أو فى التاريخ ، أو مؤلفا كبيراً ، أو محاضراً بارعاً فى العلوم العصرية ، أوأديبا صاحب أسلوب ، أو شاعرا مجيداً ، أو محاميا ناجحا فى مهنته ، أو قاضيا فى محكمة ، أو وزيراً فى دولة . وصدقونى أيها الاخوان ! أن لو كان ذلك لطواه الزمان فى من طوى من كبار العلماء والأدباء والشعراء والمؤلفين والقضاة والوزراء . إن

الفضل فى عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه فى العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية التى تخرج فيها .

إنى لأراكم أيها الأخوان ! تذهبون كل مذهب فى تشخيص هذه المدرسة ، والاهتـــداء إلى موقعها ، وإنى لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها . فمن أنشأ هذه المدرسة التى أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وماهى العلوم التى تدرس فيها ، وماهى لغة التعليم فى هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شك أنهم من كبار المربين وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة فى العلوم ، العملاق فى العقل والتفكير ، وماهى شروط هذه المدرسة وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلها لأسرع كثير منكم إليها والتحق بها .

إنها مدرسة ماخاب من تعلم فيها وماضاع من تخرج منها ، إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين ، وواضعى العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ماقالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ماخلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسة ما تُعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وماتنتخب الآثار بل تنتج الآثار ، إنها مدرسة توجد فى كل زمان ، وهى أقدم مدرسة على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوان طويلا ! إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه فى كل مكان . هى مدرسة القلب والوجدان . هى مدرسة تشرف عليها التربية الإلهيه وتمدها القوة الروحية .

قد تخرج محمد إقبال فى هذه المدرسة ، كما تخرج كثير من الرجال الموهوبين ، وحدث عنها كثيراً فى شعره ، ورد إليها الفضل فى تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته ، وصرح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنه لولا هذه المدرسة وتربيتها لما ظهرت شخصيته . ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته . وقد حدث عن معلمى هذه المدرسة وأساتذتها كثيرا وذكر فضلهم عليه .

العامل الاول :

فمن يرد الفضل إليه فى هذه المدرسة « الإيمان » الذى لم يزل مربيا له ومرشدا . ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته . وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب . الذى هو مجرد عقيدة أو تصديق بسيط ؛ بل هو مزيج اعتقاد وحب ، يملك عليه القلب والمشاعر والعقل والتفكير والارادة والتصرف والحب والبغض . وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوى العاطفة ، شديد الإخلاص والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً فى حبه ؛ مقتنعا بأن الإسلام هو

الدين الخالد الذى لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأن النبى ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويرجع محمد إقبال الفضل فى تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحى بالنبى ﷺ . وحبه العميق له ، ولا شك أن الحب هو خير حاجز للقلب ، وخير حارس له ، إذا احتل قلبا وشغله . منعه من أن يغزوه غيره . أو يكون كريشة فى فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول : « لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لى ، ويغشى بصرى ، وذلك لأنى اكتحلت بإثمد المدينة » . ويقول . « مكثت فى أتون التعليم الغربى وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود » ويقول : « لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدوننى ، ويكمنون لى ، ولكنى لا أخافهم فإنى أحمل اليد البيضاء . إن الرجل إذا رزق الحب الصادق عرف نفسه ، واحتفظ بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين . لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم . وانقادت لى الصعاب ، فإنى من عبيد ذلك السيد العظيم الذى تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى فى إثره الغبار فصار أعبق من العبير » .

وفى كتاب « أسرار خودى » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية ، والدعائم التى تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبع بتعاليمه ، والتفانى فى حبه . ولما ذكر النبى ﷺ

اندفع الشاعر يمدحه وأرسل النفس على سجيتها فقال أبياتا لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجدانى . يقول : « إن قلب المسلم عامر بحب المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا . ومصدر فخرنا فى هذا العالم ، إن هذا السيد الذى داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إن هذا السيد الذى نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالى لا يكتحل بنوم . لقد لبث فى غار حراء ليالى ذوات العدد ، فكان أن وجدت أمة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة . إذا كان فى الصلاة فعيناه تهملان دمعا ، وإذا كان فى الحرب فسيفه يقطر دما ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبى هو وأمى ، لم تلد مثله أم ولم تنجب مثله الانسانية ، افتتح فى العالم دورا جديدا . وأطلع فجرا جديدا ، كان يساوى فى نظرته الرفيع والوضيع . ويأكل مع مولاه على خوان واحد . جاءته بنت حاتم أسيرة مقيدة ، سافرة الوجه ، خجلة مطرقة رأسها ، فاستحى النبى ﷺ ، وألقى عليها رداءه .

نحن أعرى من السيدة الطائية ؛ نحن عراة أمام أمم العالم . لطفه وقهره كله رحمة ، هذا بأعدائه ، وذاك بأوليائه . الذى فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال لا تثريب عليكم اليوم . نحن المسلمين من الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة ، نحن غيض من فيض واحد . نحن أزهار كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة . لماذا لا أحبه ولا أحن إليه ، وأنا إنسان . وقد بكى لفراقه الجذع . وحنت إليه سارية المسجد . إن تربة المدينة أحب إلى من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب » .

ولم يزل حب النبى ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام . حتى كان فى آخر عمره إذا جرى ذكر النبى ﷺ فى مجلسه أو ذكرت المدينة - على منورها ألف سلام - فاضت عينه . ولم يملك دمعه . وقد ألهمه هذا الحب العميق معان شعرية عجيبة . منها قوله ، وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « أنت غنى عن العالمين وأنا عبدك الفقير . فاقبل معذرتى يوم الحشر . وإن كان لا بد من حسابى . فأرجوك يارب أن تحاسبنى بنجوة من المصطفى ﷺ . فإنى أستحيى أن أنتسب إليه وأكون فى أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصى » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوى هذا الإيمان البسيط . يقول فى بيت : « إن الفقير المتمرد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا فى أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما: لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . وهنالك علماء وفقهاء . الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحبه . ومن تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعانى البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصية الفذة .

والعبقرية النادرة ؛ وإليه يرجع الفضل فى غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة فى التاريخ ؛ وإذا تجرد منه شخص كان صورة من لحم ودم ، وإذا تجردت منه أمة كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرد منه شعر كان كلاماً موزوناً مقفى فحسب . وإذا تجرد منه كتاب كان مجموع أوراق وحبراً على ورق ، وإذا تجردت منه عبادة كانت طقساً من الطقوس وهيكلا بلا روح ، وإذا تجردت منه مدنية أصبحت تمثيلا لا حقيقة فيه ، وإذا تجردت منه مدرسة أو نظام تعليم أصبح تقليداً أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز له ، وإذا تجردت منه حياة كلت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب . هذا هو الحب الصادق الذى يتجلى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشجاعة والقوة ، والآثار الخالدة فى العلم والأدب مالم يكن ليصدر منه لولا هذا الحب الذى أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ، وبريق المادة ، فتمرد بذلك على المجتمع . هذا هو الحب الذى يدخل بين الطين والماء والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدة ، وتحفة فنية ؛ كمسجد قرطبة ؛ وقصر الزهراء ، والتاج محل . وما من أثر من الآثار الباقية فى الأدب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قوية من الحب .

لقد ضل من زعم ، أن العلماء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وأن الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية ،

وحسن اختيار اللفظ ، ودقة المعانى ، وأن المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأن المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأن المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة فى الخطابة ، وأساليب السياسة والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحب والإخلاص لغايتهم إذا فاق أحدهم الآخر فإنما يفوقه ، لأن الغاية أو الموضوع حل فى قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلم تكلم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بعلمه ، وإذا فكر فكر بعقله ، وإذا أحب أو أبغض فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الانسانية جناية عظيمة ، إذ قضت على هذه العاطفة ، التى كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحب الجنسى ، والغرام المادى ، ولم تستطع بحكم مادبتها وضيق تفكيرها ، أن تفهم أن هناك حباً المعانى السامية ، وجمالا معنويا ، هو أقوى من هذا الحب وأساءت المدرسة العصرية — وأعنى بها نظام التعليم الحديث إلى الجيل الجديد ، إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالا ما ، ولم تحسن توجيه القلوب ، وإشعالها بحرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصرى أشبه بجماد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له

ولاشعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنما هو دوامة جامدة ، تديرها يد قاهرة ، أو إرادة قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أن شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذى عرفناه وجربناه فى شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذى ندرسه فى مدارسنا ، هذا شعر تهتز له المشاعر ، وتتوتر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، ويثور له النفس ، حتى تكاد تحطم السلاسل ، وتفك الأغلال ، وتتمرد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الانسان فى لغة الشاعر ، أحس بأنه قد مر به تيار كهربائى فهزه هزاً عنيفاً . إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قوى الإيمان ، قوى العاطفة ، جياش الصدر ، فياض الخاطر ، ملتهب الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التى تحدثت عنها ، تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها وإشعالها فيه .

العامل الثانى :

أما الأستاذ الآخر الذى يرجع إليه الفضل فى تكوين شخصيته وعقليته ، فهو أستاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين ؛ ولكن ليس الشأن فى وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن فى معرفته ، وتقديره ؛ وإجلاله ، والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحى أسعد بعالمهم ، وأكثر

انتفاعاً من غيرهم . ولكن بالعكس من ذلك رأينا أن العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ! ضائع فى بيته ، مهجور فى داره ، يزهد فيه أولاده ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتى رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ويتضلع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم ، الذى أثر فى عقلية إقبال وفى نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية . ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل ، حديث العهد بالاسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار . وقد وصل هذا المهتدى إليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب . كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعانى والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه . أما الذين ولدوا ونشأوا فى هذا العالم الجديد ، فكانوا ينظرون إلى «كولمبس» وأصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح ، فإنهم لا يجدون فى هذا العالم شيئا جديدا .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير فى تذوقه للقرآن ، واستطعامه إياه . وقد حكى قصته لقراءة القرآن . قال : « قد كنت تعمدت أن أقرأ

القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبى يرانى ، فيسألنى ماذا أصنع ؟ فأجيبه أقرأ القرآن . وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألنى سؤاله ، فأجيبه جوابى ، وذات يوم قلت له : مابالك يا أبى ! تسألنى نفس السؤال وأجيبك جوابا واحداً ، ثم لايمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك : ياولدى ، اقرأ القرآن كأنما نزل عليك . ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره مانظمت » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص فى بحر القرآن ، ويطير فى أجوائه ، ويجوب فى آفاقه ، فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وإشراق جديد ، وقوة جديدة . وكلما تقدمت دراسته ، واتسعت آفاق فكره ، ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدى وأساس السعاده ، ومفتاح الأقفال المعقدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر فى هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ، ودراسته والاهتداء به فى مشكلات العصر ، واستفتائه فى أزمات المدنية ، وتحكيمه فى الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب ، الذى يرفع الله به أقواما ، ويضع به آخرين . يقول فى مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين ، والمحتكرين للعلم ، ولاتستمد حياتك من حكمة القرآن رأسا . إن الكتاب الذى هو مصدر حياتك ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة «يس» لتموت بسهولة . فواعجبآ

قد أصبح الكتاب الذى أنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة »(١)

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هـذه الدراسة العميقة والتدبر ، لايفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفة وهدية لأغنى رجل فى العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلا ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقدمها إليه قائلا : « إن هـذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، فى ضميره الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ، وبقوته كان على فاتح خيبر » فبكى الملك وقال : « لقد أتى على نادر خان زمان ، وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذى فتحت قوته كل باب » (٢)

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! فى نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هـو معرفة النفس ، والغوص فى أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها . وقد عامل نفسه بما نصح به غيره فى قصيدة يقول فيها : « انزل فى أعماق قلبك » ، وادخل فى قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سر الحياة . ما عليك إذا لم تنصفنى وتعرفنى ، لكن أنصف نفسك ياهذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً . ما ظنك بعالم القلب ، هو كله حرارة ، وسكر ، وحنان ، وشوق ، أما عالم الجسم فتجارة

---

(١) أرمغان حجاز

(٢) مثنوى مسافر .

وزور واحتيال . إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل . إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الافرنج ولا اختلاف الطبقات ، لقد كدت أذوب حياء ، وتندى جبيني عرقاً إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغـــيرك ، أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك »(١) .

وقد كان « إقبال » كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أن العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل علوهم اذا كان جريئاً مقداماً . يقول في قصيدة : « إن الانسان اذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك بآداب هذه المعرفة انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . ان ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله ، أفضل من أكبر ملوك العالم . إن الصراحة والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإن عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » . وقد جعلته هـذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيد حريته . يقول في نفس القصيدة : « يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران (٢) » .

وكان إقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته ، في غير صلف ولا غرور ، فيضن بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره . يقول في مقطوعة : « لك الحمد يارب ! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من

---

(١) بال جبريل

(٢) بال جبريل.

عبيد الملوك والسلاطين . لقد رزقتني حكمة وفراسة ، ولكني أحمدك على أني لم أبعهما لملك من الملوك(١) . » ويقول مفتخراً : « إني من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق ، ولكني غني النفس أبي » . وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة ، يقول فيها : « إذا لم تعرف رازقك ، كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته ، افتقر إليك كبار الملوك ، إن الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتل للروح ، وأنت مخير بينهما . إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن(٢) » . ولا شك أن محمد اقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جرحت كرامته ، وامتحنت عفته . قدّم إليه رئيس وزارة في دولة ، في عيد ميلاد محمد اقبال ، هدية محترمة من النقود فرفضها ، وقال : « إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء » . وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في أفريقيا الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة ، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات . فأشـــير عليه بذلك ، فرفضها ، وقال : « مادام هذا شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي » .

---

(١) بال جبريل .

(٢) بال جبريل .

وقد كان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوته ومواهبه ؛ يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة فى هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محل الشاعر ، الذى ليست له رسالة ، والنظامين الذين ينظمون فى كل مناسبة . فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه . يقول فى أبيات وجهها إلى رسول الله ﷺ : « إنى لأشكو إليك ياسيد الأمم ! إن أصدقائى يعتقدون أنى شاعر نظام ، فيقترحون على اقتراحات » . ويقول فى بيت آخر : « أنا حائر فى أمرى ياسيدى رسول الله ! إنك تأمرنى أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ؛ وهؤلاء يقولون أرخ لموت فلان وفلان ، فماذا أفعل ؟ ! » .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكرى والهيام الأدبى ، اللذين يصاب بهما أدباؤنا وشعراؤنا وكتابنا وعلماؤنا ! فينتجعون كل كلأ ، ويهيمون فى كل واد ، ويكتبون فى كل موضوع وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كل شخص ، ويظلون إلى آخر حياتهم ، لا يعرفون أنفسهم ولا يعلمون رسالتهم . أما الدكتور محمد إقبال ، فكان من توفيق الله تعالى ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين فى الهند ، أنه عرف نفسه فى أول يوم ، وقدر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح فى المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرية والسيادة . كان شاعراً مطبوعاً ، حتى

لو أراد أو أريد أن لا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر وغلبه ، كان سائل القريحة ، فياض الخاطر ، ملهم المعانى ، مطاع اللفظ . وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ؛ وكان فناناً وصناعاً ماهراً سلم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجو ، فما من شاعر ولا أديب فى عصره إلا تأثر به فى اللغة أو التراكيب والمعانى والأفكار والأغراض . وهو من أفراد شعراء العالم فى التفنن والإبداع ، وابتكار المعانى ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده فى ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزى والألمانى ؛ فضلا عن الفارسى الذى هو خاتم شعرائه . ولكن ليس هذا كل مايمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ؛ ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية وقوته الأدبية ، وعبقريته الفنية لرسالة الإسلام . فلم يكن شاعر ملك ، ولا شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ؛ بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر كما تستخدم الرسائل أسلاك الكهرباء ، لتكون أسرع وصولا ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء فيكون أكثر انتشاراً فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ويوطىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً ، ويفتح أبوابا . وكان شعره من جنود الإسلام ، ولله جنود السموات والأرض — ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرض اسمى ، وغاية أجدى لغواً منه . فأيقظ أمة ، وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة وطموحاً إلى حياة الشرف والاستقلال

والسيادة والحكم الاسلامى . حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولة تحكمها وتدير دفتها . أوجد بشعره القوى الهزاز ، القلق الفكرى ، والاضطراب النفسى ، الذى عم هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الاسلامى بصفة خاصة فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر فى حياة العبودية والذلة وحكم الأجانب ، حتى أصبحت فى يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرة حقيقة راهنة وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل فى تأسيس دولة وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الاسلامى . وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية والتذمر من الحاضر ، والتطلع إلى المستقبل ، والقلق النفسى ، فاذا تم هذا كله ونضج ؛ قامت دولة ، فان كان شعر قد أقام دولة ؛ وأحدث ثورة فكرية ، كانت سبب الانتقال من حياة إلى حياة ومن وضع إلى وضع ، فهو من غير شك ، شعر إقبال . وما ذاك أيها الاخوان ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوته ، ووضعها فى محلها ، والغيرة عليها ، من أن تضيع فى موضوعات تافهة ، وألفاظ فارغة ، وألوان زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية . وكم ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة أو باللغة المصرية « بالمزاد العلنى » ، وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

العامل الرابع :

والمربى الرابع أيها السادة ! الذى يرجع إليه الفضل فى تكوين سيرته وشخصيته ، وفى قوة شعره وتأثيره ، وجدة المعانى ، وتدفق الأفكار هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرض للنفحات السحرية ، ويقوم فى آخر الليل ، فيناجى ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه، ويتزود بنشاط روحى جديد ، وإشراق قلبى جديد ، وغذاء فكرى جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الانسان فيه قوة جديدة ، وحياة جديدة ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدد كل يوم ، فيتجدد شعره ، وتتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التى يقضيها فى السحر ، ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ، ومفكر ، لا يستغنى عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول فى بيت : « كن مثل الشيخ فريد الدين العطار فى معرفته ، وجلال الدين الرومى فى حكمته ، أو أبى حامد الغزالى فى علمه وذكائه، وكن مع من شئت فى العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أنة فى السحر » . وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به . يقول فى مطلع قصيدة : « رغم أن شتاء انجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل فى الجسم عمل السيف ، ولكنى لم أترك فى لندن التبكير فى القيام » . وكان لا يبغى

به بدلا . ولا يعدل به شيئا . يقول فى بيت : «خذ منى ماشئت يارب! ولكن لا تسلبنى اللذة بأنة السحر ، ولا تحرمنى نعيمها » . بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الأنة السحرية والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة فى هيا كلهم . يقول فى قصيدة : « اللهم ! جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية ، وأيقظ الآمال والامانى النائمة فى صدورهم ، بنجوم سماواتك التى لاتزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليـــل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الاسلامى لوعة القلب ، وارزقهم حبى وفراستى » . ويقول فى قصيدة : « اللهم ! ارزق الشباب أنتى فى السحر ، وانبت لصقور الاسلام القوادم والخوافى ، التى تطير بهـا وتصطاد ، وليست لى أمنية يارب ! إلا أن تنتشر فراستى ، ويعم نور بصيرتى فى المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير والمؤثر الكبير فى تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السـادة ! هو « المثنوى المعنوى » بالفارسية وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومى فى ثورة وجدانية ونفسية شديدة ، ضد الموجة العقلية الاغريقية التى اجتاحت العالم الاسلامى فى عصره ، وقد انتصر فيه للايمان والوجدان انتصاراً قويا وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب الصادق والمعانى الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية ، التى كانت تشغـــل أذهان المسلمين

والمدارس الدينية والأوساط العلمية في الشرق الاسلامى ، والكتاب متدفق قوة وحياة ، زاخر بالأدب العالى والمعانى الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الريان الذى يملى هذه المنظومة التى لا تزال فريدة فى موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القوى فى تحرير الفكر من رق العقل . والتقديس الزائد للقيم العقلية، والخضوع للمادية الرعناء ، ويبعث التمرد على عالم المادية الضيق ، والتطلع إلى أجواء الروح الفسيحة . وكان العالم فى عصر محمد إقبال يواجـــه التيار العقلى الاوروبى الذى جرف جميع القيم الروحية والخلقية ؛ وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعدا عن المعانى الروحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية . وقد قضى محمد إقبال فترة من الزمن يتنازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه المتجدد ، وقلبه الحار الفائض بالايمان ، وفى هذا الاصطراع الفكرى والاضطراب النفسى ، ساعده المثنوى مساعدة غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعا مجيدا ، وحل به كثيرا من ألغاز الحياة . ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره فى كثير من أبياته ، ويعزو إليه كثيرا من الحقائق والحكم . يقول فى بيت يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « قد سحر عقلك سحر الافرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومى ، وحرارة إيمانه . لقد استنار بصرى بنوره ، ووسع

صدري بحرا من العلوم » . ويقول في بيت : « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أن كليما واحدا — يشير إلى سيدنا موسى — هامته على راحته ، يغلب الف حكيم قد أحنوا رؤوسهم التفكير » . وكان محمد إقبال يرجو أن يجدد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لايزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارة لطيفة ، يقول في قصيدة : « لم ينهض رومي آخر من ربوع العجم ، مع أن أرض إيران لاتزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز(١) كما كانت ، إلا أن إقبال ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسنا ، وأتت بحاصل كبير » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شك أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة ، كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه ، وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والايمان القوي ، والخلق المستقيم . والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

---

(١) مدينة في إيران ، منها شمس الدين تبريزي ، شيخ الرومي في التصوف .

نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه [1]

نقده لنظام التعليم :

نظر محمد إقبال إلى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعف كثيرة ، وجوانب نقص عظيمة،فتناولها بالانتقاد فى صراحة وشجاعة ، ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنايات المدرسة ـ ويقصد بها نظام التعليم الحديث ـ على هذا الجيل ، شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره . يقول فى بيت : لقد خرجت من المدرسة والزاوية حزيناً ، لم أجد فيها الحياة ، ولا الحب ، ولا الحكمة ولا البصيرة . ويقول فى بيت آخر : « أما رجال المدرسة ففاقدو البصر ، وميتو الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصرو الهمة ، ضعيفو الطلب ، قليلوا البضاعـــــة » .

جنايات المدرسة :

ومن رأى محمد إقبال ، أن التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل

---

(١) من محاضرة ألقيت فى كلية دار العلوم بالقاهرة فى ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ .

جناية عظيمة إذ اعتنت بتربية عقله ، وتثقيف لسانه ، ولم تعتن شيئا بتغذية قلبه ، وإشمال عاطفته وتقويم أخلاقه ، وتهذيب نفسه ، فنشأ جيل غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ؛ قد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ؛ فالاول ضخم كبير ، والثانى ضعيف ناعم . وهو إذا وصف هذا الجيل ، الذى عاش فيه وعرفه عن كثب واتصال ، صوره تصويرا صادقا ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد . يقول :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ، ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد فى هذا العالم شيئا . هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم . يبنى الاجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأديارا ؛ شباب ناعم ، رخو رقيق فى الشباب كالحرير . يموت الامل فى مهده فى صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا فى الحرية ، إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان . أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم فى ذلك . إن المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يخبرهم بشرفهم ، ولم يعرفهم بشخصيتهم . مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت

ولا يؤمنون بأنه لاغالب إلا الله . يشترون من الإفرنج اللات ومناة . مسلمون ، لكن عقولهم تطوف حول الأصنام . إن الإفرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لاتعف عن المحارم ، وقلوب لاتذوب بالقوارع . كل ماعندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب ، يطوف حول الماديات . قلوبهم لاتتاق الخواطر المتجددة ، وأفكارهم لاتساوى شيئا، حياتهم جامدة ، واقفة ، متعطلة .

ويذكر محمد إقبال أن السبب فى جبن هذا الجيل وضعفه الخلقى هو الوضع التعليمى الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقى ونشأة الشباب المتحللة ، يقول فى قصيدة : « لاأستغرب أيها الشباب المتعلم ! إنك حى جبان ، فإن قلبك بارد لالوعة فيه ولاحرارة ، ونظرك غير عفيف . إن الشباب المثقف الذى استنارت عينه بنور الإفرنج قد يكون لبقا فى الحديث متشدقا فى الكلام ، ولكن عينه لاتعرف الدموع وقلبه لايعرف الخشوع » ويرى محمد إقبال أن المدرسة هى المسؤولة عن هذا المسخ الخلقى ، وهى التى نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى المحل الوضيع . يقول فى بيت : « أشكو إليك يارب ! من ولاة التعليم الحديث وإنهم يربون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور ، وأشبال الأسود تربية الخروف» ومن أسباب هذا الضعف النفسى هو العقل المثبط الذى يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس، ويحذر من سوء العاقبة ، ويكبر الأخطار . يقول فى بيت : « إن التعليم قد باعدك من الجنون الذى كان ينازع

العقل ، ويقول له : لا تملل ولا تثبطى عن المغامرة . إن الأسرار التى حجبتها عنك المدرسة لاتزال مكشوفة فى خلوات الجبال والصحارى » .

ومن أكبر أسباب هذا الضعف ، الذل والتقدير الزائد للمادة والنظر إلى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم . يقول فى بيت : « إن ذلك العلم سم ناقع للأفراد الذين ليست لهم غاية ، إلا حفنتان من شعير » (يعنى الراتب الذى يتقاضاه الموظف) .

ماخذه على التعليم :

ومن أكبر مآخذه على هـذا التعليم أنه يبعث على التعطل وحب الهدوء والراحة ، ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء ، لاحركة فيـه ولا اضطراب . يقول فى بيت : « رماك الله أيها المتعلم بطوفان ، فإن بحرك هادىء لا اضطراب فى موجه » . وكذلك يبعث هذا التعليم فى الشباب المسلم «افرنجية» وحب الزينة ، يقول فى قصيدة : « إن مقاعدك أيها الشباب المسلم ! إفرنجية وزرابيك إيرانية ، وإنى أكاد أبكى دما إذا رأيتك فى هذا الترف والبذخ . لاخير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا مادمت متجرداً من قوة علىّ واستغناء سلمان » .

ومن مآخذه على هذا التعليم أنه يحدث الفوضى الفكرية . يقول فى بيت : « إن المدرسة تحرر العقل بلاشك ولكنها تترك الأفكار بغير نظام وارتباط » .

ومن مآخذه على نظام التعليم العصرى والمدرسة التى تمثله وتؤدى

رسالته أنها مصابة بالتقليد والجمود ، ومجردة من الابتكار والاجتهاد . يقول فى قصيدة : « إن العالم أسير التقاليد والأوضاع ، وإن المدرسة منحصرة فى نطاق ضيق ، يا للأسف! إن الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمة زمانهم أصبحت عقولهم بالية ، وفقدت كل نشاط وجدة فاقتنعوا بتقليد عصرهم » .

إن الدكتور محمد إقبال لا يرى أن هذا الجيل حى قائم بنفسه ، ويفكر بعقله ، إنه يعتقد أنه ظل لأوروبا ، وأن حياته عارية من الغرب . يقول فى بيت : « يتراءى لك أن الشاب المتعلم حى يرزق ولكنه فى الحقيقة ميت ، استعار حياته من الغرب » ويخاطب المتفرنج ويقول : « ليس وجودك إلا تجلى الإفرنج، لأنك بناء قد بنوه . هذا الجسم العنصرى فارغ من معرفة النفس ، فأنت غمد محلًّى بغير سيف . وجود الله غير ثابت فى نظرك ووجودك أنت غير ثابت فى نظرى » .

ومن رأيه أن نظام التعليم الغربى قد ضعّف الروح المعنوية فى الشباب المسلم ، وجنى على رجولته جناية عظيمة ، فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً ، لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المكروه . يقول فى قصيدة يخاطب فيها بعض المربين : « حيا الله شبيبتك ، يا مربى الجيل الجديد ! ألق عليهم درس التواضع ، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية . علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج . إن عبودية قرنين متواليين قد كسرت

خاطرهم وأوهنت قلوبهم ، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم وتحارب الفوضى الفكرية » . وكان لا يغتفر هذه الجريمة . يقول فى موضع آخر : « أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزنا ، الحكمة التى تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفا » .

نظرة محمد إقبال إلى العلوم والآداب

آراؤه فى العلوم والآداب :

للدكتور محمد إقبال آراء حصيفة فى العلوم والآداب والشعر ، هى عصارة تفكيره وتجاربه . منها أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله، وقوة عظيمة ، يحدث به صاحبه انقلابا فى المجتمع ، وثورة فكرية ، يضرب به الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية ، ويشعل القلوب حماسة وغضبا ، ويشعل البلاد ناراً وثورة ، ويملأ النفوس قلقاً واضطراباً ، وتذمراً من الشر ، وتطلعاً إلى الخير ؛ فلابد أن يكون فى قلم الأديب والشاعر التأثير الذى كان فى عصا موسى ، وأن يؤدى رسالته فى العالم ، وكل أدب استغل لجمع المادة أو لإرضاء الأغنياء والأثرياء ، أو إثارة الشهوات ، أو على الأقل كان أداة للهو والتسلية ، والتذوق بالجمال والتغنى به ، فهو أدب ضائع مظلوم ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ما وهب له . يقول فى بيت : « أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعى ، ولكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر والبحر » .

ويعتقد محمد إقبال أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز ، حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحى ، ويسقى بدمه . ويصف مهمة الأدب والشعر ورسالتهما ويقول: «يا أهل الذوق والنظر العميق، أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أى قيمة للنظر الذى لايدرك الحقيقة ؟ لا خير فى نشيد شاعر ، ولا فى صوت مغن ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله فى نسيم السحر ، إذا لم تستفد منه الحـــديقة إلا الفتور والخمول والذوى والذبول ، إن غاية الإحسان فى فن من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً . وماقيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لاتحدث اضطراعاً فى الأمواج ولا اضطراباً فى البحار ؟ ولا نهضة للأمم إلا بمعجزة ، ولا خير فى أدب ولا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى .

يقول محمد إقبال هذا ، ويرى بالعكس أن الأدب فى الشرق الإسلامى قد أصبح تتحكم فيه المرأة . فأصبح لا يتحدث إلا عنها ، ولا يتغنى إلا بها ، ولا يبحث إلا فيها ، ولا يصور إلا إياها ، ولا يرى فى الكون إلا ظلها وجمالها ، وهذه عقيدة جديدة فى « وحدة الوجود » التى يمكن أن تسمى « الوجودية الأدبية » وكأن الأدب العصرى ينـــادى بلسان حاله (لاموجود إلا المرأة) أو (لاموجود إلا الفتاة) . يقول محمد إقبال : « أسفا للشعراء والرسامين وكتاب القصة فى بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة » ولاشك أنه تصوير صادق للاتجاه الأدبى العام فى الشرق الإسلامى ، واندفاع الأدب المتهور وراء المرأة ، وهيامه بها ، وإعراضه عما سواها .

وله فى الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأى خاص . فهو يرى أنه الفلسفة لاتعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن الفلسفة التى تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية ، وتتلهى بالمناقشات اللفظية ومباحث مابعد الطبيعة ولاتدخل فى صميم الحياة ولاتتعرض للمجتمع ، وتعيش فى العزلة عن العالم ، إنما هى فلسفة منهارة ، لاتستطيع أن تعيش يقول فى بيت :
« إن الفلسفة التى لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة » .

وقد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ونقدها ، والتفكير الطويل العميق ، إلى اخفاق الفلسفة فى حل مشكلات الحياة ، وانها صدفة لامعة خالية من اللؤلؤ ، وهى بمعزل عن الحياة والكفاح ، لاتساعد البشر ولاتمنحهم دستوراً للحياة ، وان الدين هو الذى ينظم المجتمع ، وينور الطريق ، ويقدم دستوراً للحياة ؛ وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو المصدر الوحيد الذى يستفاد منه هذا العلم . عرف الشاعر صديقا له من الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيرا كبيراً ، وتزلزلت عقيدته الإسلامية ، فكتب إليه محمد إقبال قصيدة يقول : « أنا رجل كما تعرف انتهى فى أصلى إلى سومنات (١) وكان أبى من عباد اللات ومنات ، وإن أسرتى عريقة فى البرهمية . ولكن يجرى فى عروقك دم الهاشميين ، وتنتمى إلى سيد الأولين والآخرين ، وقد امتزجت الفلسفة بلحمى

---

(١) المعبد الوثنى المعروف فى الهند ، الذى فتحه السلطان محمود الغزنوى ، وحطم صنمه الأكبر .

ودمى ، وجرت منى مجرى الروح . أنا ، وإن كنت لا أحسن شيئا ، فلا شك أنى نزلت فى أعماق هذه الفلسفة ، وتغلغت فى أحشائها ، وبعد ذلك أقول : إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة ، وإنها لاتزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة ، وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل . هذا « هيجل » ، الذى تبالغ فى تقديره ، إن صدقته خالية من اللؤلؤة وإن نظامه ليس إلا وهما من الأوهام . لقد انطفأت شعلة القلب فى حياتك أيها السيد ! وفقدت شخصيتك، فأصبحت أسيرا « ابرجسان » ان البشرية تريد أن تعلم : كيف تتقن حياتها وكيف تخلد شخصيتها ، إن بنى آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستورا للحياة ، ولكن الفلسفة لاتساعدهم فى ذلك . بالعكس من ذلك ، إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون . إن الدين هو الذى ينظم الحياة ، وإنه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد ﷺ فعليك أيها السيد! بتعاليم جدك ﷺ . إلى متى يا ابن على ! (رضى الله عنه) تقلد أباعلى (ابن سينا) ، اذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشى (يعنى رسول الله ﷺ) خير لك من القائد البخارى (يعنى ابن سينا) » .

وبالإجمال إن الدكتور محمد إقبال يرى ، أن نظام التعليم الحديث قد أخفق فى أداء رسالته وأخفق فى انتاج جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ويحسن استعمال مادته العلمية وثروته الثقافية ويضع كل شىء فى محله ؛ ويعيش حياة سعيدة مطمئنة . وبالعكس من ذلك ، وجد جيل مثقف

ثقافة عالية ، يعرف عن مجاهل افريقية والقطب الشمالى ، وعن حياة الحيوان والنبات شيئا كثيرا ، ولا يعرف عن نفسه إلا قليلا . ويسخر البخار والكهرباء ، ويسخر الطاقة الذرية فى الزمن الأخير ، ولا يملك نفسه وقوته . ويطير فى الهواء كالطير ، ويسبح فى البحار كالسمك ، ولا يحسن أن يمشى على الأرض ؛ وما ذلك إلا لأن التعلم قد اختل ميزانه ، وفسد مزاجه ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟! يقول فى قصيدة : « من الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس . لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح . وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر فى بيداء أفكاره . ومن عكف على الألغـــاز يحلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر » .

تصوير للشباب المسلم :

وفى الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للاسلام جيلا جديدا . شبابه طاهر نقى وضربه موجع قوى ، إذا كانت الحرب فهو فى صولته كأسد الشرى ، وإن كان الصلح فهو فى وداعته كغزال الحمى يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل . هذا مع الاعداء وذاك مع الاولياء . اذا تكلم كان رقيقاً رفيقا . وإذا جد فى الطلب كان شديدا حفياً . وكان فى حالتى الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً : آماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غنى القلب فى الفقر ، فقير الجسم والبيت فى الغنى ، غيور فى العسر رؤوف كريم عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منة . ويموت جوعا إن رأى فى الرزق ذلة . اذا كان بين الأصدقاء كان حريرا فى النعومة ، وإن كان

بين الأعداء كان حديدا فى الصلابة . كان طلا وندى . تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفانا تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض فى سيره صخورا وجبالا ، كان شلالا ، وإن مر فى طريقه بحدائق ، كان ماء سلسالا ، يجمع بين جلال إيمان الصديق وقوة على ، وفقر أبى ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر : كمصباح الراهب فى ظلمات الصحراء ، يعرف فى محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر . الشهادة فى سبيل الله أحب اليه من الحكومات والغنائم : يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويبارى الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان . يرفع قيمته ويزيد فى سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه . شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق فى اللباس ، وشعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس فى لونه ، والعندليب فى حسن صوته » .

الحضارة الغربية والتربية الغربية

نقد للحضارة الغربية :

بدأ الشباب الإسلامى الذكى فى فجر القرن العشرين يتوسعون فى الدراسات الغربية ، ويتعمقون فيها فى الجامعات الهندية الراقية ، وقد زالت عنهم دهشة الفتح وهيبة الإنجليز ، وبدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوروبا ، ويقيم عدد كبير منهم فى عواصمها إقامة طويلة ، ينهلون من مناهلها الثقافية ، ويدرسون العلوم العصرية بدقة واتقان. تحت إشراف أساتذة كبار أحرار ، ويعرفون الحضارة الغربية عن كثب لا عن كتب ، بل يخوضون فيها ، ويسبرون غورها ، ويعجمون عودها كأى شاب غربى مثقف من أبناء البلد ، ويدرسون الفلسفات والنظم والمدارس الفكرية ، ويطلعون على دخائلها وأسرارها ، وعلى الطبيعة الغربية المادية ، والنخوة القومية الأوروبية ، والأثرة الشعبية فى نفوس هذه الشعوب ، ويرون جوانب الضعف ، وبوادر الافلاس وطلائع الانهيار فى المجتمع الغربى ، ويلاحظون العناصر الصالحة البناءة ، المسعدة للبشرية ، المفقودة فى تركيب هذه الحضارة ، وفى طبيعة زعمائها وحملة لوائها ، وعناصر الفساد الهدامة المدمرة للمدنية ،

الضالة للبشرية ، الموجودة فى عجينها ، المركبة مع طينها من اليوم الأول ، فيثير كل ذلك فى نفوسهم وعقولهم لمعانى وأحاسيس لم تكن ممكنة إلا مع الإقامة الطويلة فى أوربا ، والتعمق فى فلسفاتها وأفكارها ، والدراسة المقارنة ، وإلا مع النظر العميق الجرىء ، والتحرر من ربقة التقليد ، وإلا مع الإيمان الذى لم يتجردوا عنه ، بل بقى جمرة فى رماد ، مستعدة للالتهاب فى كل وقت ، فيرجع كثير منهم يائسا من مستقبل الحضارة الغربية ثائراً عليها ، ناقداً نقداً جريئاً عميقاً متزناً ، لا تطرف فيه ولا إنكار للواقع ، ولا مكابرة فى الحقائق .

لقد كان فى مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال الذى يعتبر بحق أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة التى ظلت تشتغل وتنتج فى العالم الإسلامى من قرن كامل ، وأعمق مفكر أوجده الشرق فى عصرنا الحاضر ، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه — على كثرة من أم الغرب منهم ودرس هناك — أحداً نظر فى الحضارة الغربية هذا النظر العميق وانتقدها هذا الانتقاد الجرىء .

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية فى هذه الحضارة وتركيبها ، والفساد الذى عجنت به طينتها ، لاتجاهها المادى ، وثورة أصحابها على الديانات ، والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها وعلل فساد القلب والفكر الذى اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة ، « وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطاهر ، والفكر السامى والذوق السليم » ، وتسلط عليها — رغم

المدنية الباذخة ، والحكومات الواسعة ، والتجارة الرابحة — القلق الدائم ، لقد أظلم الجو فى عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها — على كثرة أنوارها — غير متهيئة لفتح جديد فى الفكر وإشراق من عالم الغيب » إنه نوه بأساس الحضارة اللادينية ، وبأنها عجنت مع الثورة على الدين ، فهى فى خصومة دائمة مع الدين والأخلاق وإنها عاكفة على عبادة آلهة المادة وتؤسس لها معبداً جديدا ، يقول فى ديوانه : « ماذا ينبغى أن تعمل شعوب الشرق » :

« ولكن إياك والحضارة اللادينية التى هى فى صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتانة تجلب فتنا وتعيد اللات والعزى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشاً فى سرابها ، إنها تقضى على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب ، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهارا وجهارا ، إنها تدع الإنسان لاروح فيه ولا قيمة له » يقول : إن شعار هذه الحضارة : الغارة على الإنسانية ، والفتك بأفراد النوع البشرى ، وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لايسعد بالسلام والهدوء ، وبالحب البرىء النزيه ، والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة ، يقول فى الديوان الذى مر ذكره :

« إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببنى آدم الذى تقوم عليه تجارتها ، وتنفق سلعتها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء ، الذى انتزع نور الحق من صدور بنى آدم ،

إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام مالم يعد هذا النظام رأساً على عقب » .

إنها حضارة شابة — بحداثة سنها ، والحيوية الكامنة فيها — ولكنها محتضرة تعانى سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة فى ذلك ، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار » « ولا يستغرب أن يرث تراثها الدينى ويدير كنائسها اليهود » « إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ، وجدرانها من زجاج لاتحتمل صدمة » « إن الفكر المارد الذى أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم » « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، وإن العالم القديم الذى حوله الغربيون مكاناً للقمار ، (يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم) يلفظ نفسه » « إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، ولكن لم يكن فى ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الإلهام ، ويتشرف بالكلام ، ولا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام ويحول النار إلى برد وسلام » « إن عقلها الجرىء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، إن عباقرتها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون — حتى فى ابتكارهم وثورتهم — عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة »

« لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة فى أوربا ، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة ، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس فى

جمال البناء ، وحسن المظهر والنظافة ، إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين ، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوربا إلا مظاهر جوفاء ، ليست وراءها حقيقة ، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، إن البطالة والعرى وشرب الخمر والفقر هى فتوح المدنية الإفرنجية ، إن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ، ويقتل فيها الحنان والوفاء ، والمعانى الإنسانية الكريمة » .

وقد كان انتقاده واستعراضه للحضارة الغربية ، وأسسها ومناهج تفكيرها فى محاضراته العلمية التى ألقاها فى «مدراس» ونشرت بعنوان «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام» أعمق وأكثر تركيزاً بطبيعة الحال لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر والأدب ، فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية فى الغرب ، والإنسان المعاصر الذى يمثلها ويتزعمها وعن الأزمة والمشكلات التى يعانيها :

« الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطة ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو » .

« الإنسان العصرى وقد أعشاه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه

روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حباً طاغيا ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق فى « الواقع » أى فى مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التى أعقبت فلفسته المادية ، هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه ، والذى أدركه هكسيلى (Husley) فأعلن سخطه عليه ».

« والاشتراكية الملحدة الحديثة ـــ ، ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة ـــ لها نظرة أوسع أفقا لكنها قد استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل (Hegel) وقد أعلنت العصبيات على ذات المصدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف . وهى إذن ليست بقادرة على أن تشفى علل الإنسانية » .

ومحمد إقبال يصف هذا المجتمع ـــ الأوربى ـــ بمجتمع يحركه تنافس وحشى ، وهذه الحضارة بحضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينيـــة والقيم السياسية .

وينظر محمد إقبال - كـكل مطلع خبير - إلى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المـادية ، وأسرتين للحضارة الغربية ، إحداهما شرقية ، والأخرى غربية ، تلتقيان على النسب المـادى ، والتفكير المادى ، والنظر المحدود إلى الإنسان ،ويقول بلسان جمال الدين الأفغانى - فى رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها - : « إن الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح فى « المعدة » ، إن الروح ليست قوتهـا وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لاشأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون ، إن الأخوة الإنسانية لاتقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس » .

« إن الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسآمة والجهل بالله والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية «خروج» ، وعند الملوكية «خراج» ، والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج. إن الشيوعية تقضى على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء ، وتسلب القوت من أيدى العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين فى المـادة ، جسمهما قوى ناضر ، وقلبهما مظلم فاجر » .

الحضارة الغربية والأقطار الاسلامية :

ويعتقد محمد إقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البلاد الإسلامية ، وإعادة الحياة إليها ، يقول :

«إن الحضارة التي قد أشرفت على الموت لاتستطيع أن تحي غيرها».
وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها، وكافأت خيرها بشر، فقد منحها الشام نبياً، رسالته العفة والمؤاساة والرحمة، ومقابلة الشر بالخير، والظلم بالعفو، وقد منحته أوربا - بدورها - ومقابل كل ذلك - الخمر والقمار، والفجور وهجوم المومسات».

نقده لدعاة التجديد في الشرق :

إنه يسيء الظن بدعاة التجديد - وبالأصح التغريب - في الأقطار الإسلامية، ويخشى أن تكون الدعوة إلى التجديد حيلة وستاراً لتقليد الإفرنج، يقول :

« إنى يائس من زعماء التجديد في الشرق، فقد حضروا في نادى الشرق بأكواب فارغة، وبضاعة مزجاة في العلم والفكر» .

إن البحث عن « برق جديد » في هذا السحاب عبث وإضاعة وقت، فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم، فضلا عن البرق الجديد » .

« إنه يعارض التقليد الأعمى في أمة من الأمم، ولاسيما الأمة التي خُلقت لقيادة الأمم وإحداث الثورة في العالم، ويقول :

« إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائماً، هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمان، لاتعطل شخصيتك - أيها المسلم - بالتقليد الأعمى، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد، إن التجديد

(بمعنى التغريب) لا يليق إلا بأمة لا تفكر إلا فى الدعة والترف ، إننى أخاف أن تكون الدعوة إلى التجديد إنما هى حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب » .

إنه يعاتب الأمم الشرقية الإسلامية التى كان دورها دور التوجيه والقيادة وأصبحت تمثل دور التلمذة الخاشعة ، والتقليد الذليل ، يقول ـ وكأنه يشير إلى الشعب التركى الإسلامى ومن كان على شاكلته :

« إن أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يقودوا عصرهم ، أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه » .

وفى « جاويد نامه » يحكى محمد إقبال انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التى قام بها أتاتورك فى تركيا ، ويذكر سطحيتها وتفاهتها ، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار ، ومن كل أصالة فى التصميم والتخطيط وأنه ليس إلا مقلداً أعمى لأوربا ، يقول :

« إن كمال الذى تغنى بالتجديد فى حياة تركيا ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ، ولكنه جهل أن الكعبة لا تتجدد ولا تعود إلى الحياة والنشاط ، إذا جلبت لها من أوربا أصنام جديدة ، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة ، إنما هى كلها أغان مرددة معادة تتغنى بها أوربا من زمان ، ان الجديد عنده هو القديم الاوربى الذى أكل عليه الدهر وشرب ليس فى صدره نفس جديد، وليس فى ضميره عالم حديث ، فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الاوربى المعاصر ، إنه

لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثـــل الشمعة وفقد شخصيته(١) » .

التعليم الغربي وتأثيره :

قد اكتوى محمد إقبال بنار نظام التعليم الغربي شخصيا ، وخاض في دراسته ، فأبدى حقيقته في أسلوب جاد عميق ، مؤسس على التجارب الشخصية ، يقول :

« إياك وأن تكون آمنا من العلم الذي تدرسه ، فانه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها » .

إنه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذري الذي يحدثه نظام المعارف الحديث بقوله :

« إن التعليم هو « الحامض » الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا « الحامض » هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيمائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جبلا شامخا إلى كومة تراب » .

إنه يرى نظام التعليم الغربي مؤامرة على الدين والخلق ، كما يقول:

« إن نظام التعليم الغربي ، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة » .

إن إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام

---

(١) ملتقط من كتاب المؤلف « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ص ٩٧ فصل «محمد إقبال ونقده للحضارة الغربية»

التعليم الغربى ، فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاءوا معهم بدرر كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة وازدادوا ثقة بنفسهم ، ولو كان من الصعب أن يُحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم الغربى والفلسفة الغربية فى قليل أو كثير ، وأن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنة وفهم السلف تماماً ، ولكن الذى لامرية فيه أنه لم ينصهر فى بوتقة الغرب ، كما انصهر آلاف من معاصريه ، وحق له أن ينشد فى هذه المناسبة شعره الذى معناه :

« كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت مكره ، التقطت الحبة وأفلت من شبكة الصياد ، يشهد الله أنى كنت فى ذلك مقلداً لإبراهيم، فقد خضت فى هذه النار واثقاً بنفسى ، وخرجت منها سليما محتفظا بشخصيتى »(١) .

---

(١) ملتقط من كتاب المؤلف « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية » ص ١٨٤ .

الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال (*)

بحث عن انسان :

قال مولانا جلال الدين الرومى فى بعض مقطوعاته : « رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلا ، كأنه يبحث عن شيء . قلت له : ياسيدى ! تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعا ، وخرجت أبحث عن إنسان فى هذا العالم . لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام ، الذين أجدهم حولى ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال ، يملأ عينى برجولته وشخصيته ويروح نفسى . قلت له: لقد غرتك نفسك ياهذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لاتتعب نفسك ، وارجع

(*) مقال أعد لجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا) وقدمه صاحب المقال فى ٥ رجب سنة ١٣٧٠ هـ (١٠ أبريل ١٩٥١ م) فى احتفال كبير أمام شباب الجامعة وجماعة من الأساتذة . ولم يتسع الوقت والجو للاستماع إليه كاملا لبرامج أخرى ، وتمثيلية كانت لتعرض من فرقة باكستانية .

أدراجك ، فقد أجهدت نفسى ، وأنضيت ركابى ، ونقبت فى البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عينا ولا أثرا . قال الشيخ : اليك عنى ، أيها الرجل! فأحب شيء إلى نفسى ، أعزه وجودا ، وأبعده منالا » .

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد « أسرار خودى » ولا أظن أن محمد إقبال اختار هذه المقطوعة ، وحلى بها صدر كتابه إلا لأنها تصور نفسيته ، وتعبر عن شعوره ، فقد كان بحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن « الإنسان الكامل » فهل وجد محمد إقبال ضالته ، يا ترى؟ وظفر بمطلوبه أم قطع من الرجاء؟ .

وإذا كان الجواب : نعم لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس ، وظفر بوطره من الرجال ، فتأكدوا أنه فتح أعظم من فتح « كلمبس » واكتشاف أجل خطرا وأعظم قدرا من اكتشاف العالم الجديد ، لأنه اكتشاف الانسان المفقود ، وعثور على الإنسانية الضائعة ، ولا خير فى العالم — قديمه وجديده — إذا فقد الانسان وضاعت الانسانية ، وحاجة العالم إلى إنسان أشد اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الانسان الكامل :

إن محمد إقبال يحدثنا فى شعره بأنه وجد هذا الانسان المنشود ، وعرفه واتصل به ، ونراه قد هام به هياما ، وتغنى فى شعره بانسانيته وشخصيته ، فأين وجده محمد إقبال ، وكيف السبيل إلى هذا الانسان الرفيع ؟ .

أخاف أن أفاجئكم بما لاتقدرونه ولاتنتظرونه اذا أخبرتكم أن الانسان الكامل الذى وجده محمد اقبال ، فوجد فيه ماكان ينشده ، من معانى الانسانية والقوة والحياة والجمال والكمال ، هــو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

ان هذا الجواب مفاجأة للذين يحملون للمسلم صورة قاتمة هزيلة لاتتفق أبدا مع هذا التصوير الرائع ، الذى قدّمه الشاعر ، للانسان الكامل ، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى فى المسلم الضالة المنشودة والصورة الكاملة للإنسانية .

المسلم المثالى :

ولكنه يعنى ذلك المسلم المثالى ، الذى يمتاز ، بين أهل الشك والظن ، بإيمانه ويقينه ؛ وبين أهل الجبن والخوف ، بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عبّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وانسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته . ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لايزال الحقيقة الثابتة التى لاتتغير ولاتتحول وأما ماعداه فزبد يذهب جفاءً . ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء . أما ماعداه فشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . يقول فى بيت : « إنك أيها المسلم فى العالم

وحدك ، وما عداك سراب خادع ودرهم زائف » . ويقول فى بيت آخر : « إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق ، وكل ماعداه فى هـذا العالم المادى وهمٌ وطلسم ومجاز » .

* * *

المسلم له وجودان :

إن المسلم له وجودان ، الوجود الانسانى ، والوجود الايجابى ، أما الوجود الانسانى : فهو الوجود الذى يشاركه فيه كل انسان ، يولد كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ، ويجوع ويظمأ ، ويشعر بالبرد والحر ، ويأكل ويشرب ، ويصح ويمرض ، ويموت ويحيا ، ويفقر ويغنى ، ويزرع ، ويتجر ، ويعول العيال ويربى الأطفال ، ويقتنى الأموال ، ويحكم البلاد والرجال ، فهو فى هذا الوجود خاضع للسنن الطبيعية ، تجرى عليه كما تجرى على غيره ، وتنفذ فيه كما تنفذ فى أى إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ، ولا تتسامح معه لأنه يحمل اسماً خاصاً ، وينتمى إلى جنس خاص ، ويلبس لباسا خاصا وهو ذرة حقيرة فى صحراء الوجود المترامية ، وموجة عادية تأتى وتذهب فى بحر الكون الزاخر ، من غير أن يشعر بها أحد ، فاذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشرى العام وعاش كإنسان لا أقل ولا أكثر ، كان كائنا ضعيفا فانيا ليست له قيمة كبيرة فى نظر ضير الوجود ، واذا مات فى وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم شيئا كبيراً .

أما الوجود الإيمانى فهو انه يحمل رسالة خاصة ، رسالة الأنبياء والمرسلين ، ويؤمن بمبادىء خاصة ، ويعتقد اعتقاداً خاصاً ، ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ، ودعامة من دعائم العالم ، وحاجة من حاجات البشرية ، يستحق أن يعيش ، ويستحق أن ينتصر ، ويستحق أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش ويجب أن يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية ، وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور والحرارة ، فإذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة ، كانت معانى الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق ، التى تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ، ويتكفل المسلم باعلانها ، والقيام بها والجهاد فى سبيلها ، فلولا هو لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سرا مكتوما ؛ إذن فمركزه فى العالم ، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النيرة ، تنقرض الأجيال والأمم ، وتحول الأنهار مجراها ، وتخرب عمائر وتعمر خرائب ، وتقوم حكومات ، وتتقلص حكومات ، وتأتى مدنيات ، وهو قائم لا يزول ولا يحول .

المسلم حى خالد :

يعتقد محمد إقبال أن المسلم حى خالد ؛ لأنه يحمل رسالة خالدة ، ويحتضن أمانة خالدة ، ويعيش لغاية خالدة ، يقول فى بيت : « لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم ، لأن وجوده رمز لرسالات الأنبياء ، وإن أذانه إعلان للحقيقة التى جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى

ومحمد ﷺ » . ويقول فى بيت آخر : « المسلم رسالة الله الأخيرة » فلا يعتريها النسخ والتبديل » . ولا يعنى محمد اقبال أن كل فرد من أفراد الأمة الاسلامية حى خالد ، يفلت من الموت ، ويتمرد على القانون الطبيعى ؛ كيف ، وقد قال الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وقال : «أفإن مت فهم الخالدون» ، ولكن محمد إقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الاسلام الخضم ، يأتى موج ويذهب موج ،وتتراءى الامواج فى أحضان البحر وتتلاشى فى وجوده ، والبحر لا يتغير ، فالبحر امتداد دائم ، وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة ، كبحر الحياة وبحر الوجود تتبدل أمواجه - وهى أفراد البشر - ولا يتبدل كيانه .

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد اقبال خطوة أخرى ، فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا الكون ، خُلق العالم له وخلق هو لله . لقد كان العلماء يتباحثون فى صحة حديث « لولاك لما خلقت الأفلاك » ، ولكن محمد اقبال لا تهمه صحة هذا الحديث لفظا ورواية ، إنه يفهم من القرآن ، ومن دراسة الاسلام وطبيعة المسلم ، ورسالته السامية ، ويفهم من دراسة التاريخ الانسانى الواسعة العميقة ، والاطلاع الواسع على أوضاع العالم وطبائع الأشياء ، أن المسلم الذى هو جارحة لرسول الله ﷺ وخادمه ، هو مصداق معنى الحديث ، فضلا عن الرسول عليه الصلاة والتسليم ، فهو خليفة الله فى أرضه . خلق لأجله العالم ، وعلمه الأسماء ، وحكمه فى الارض ،

وأورثه خيراتها وخزائنها ، وألقى إليه بمقاليدها : فيجب عليه أن يعتقد، ويقتنع بأن العالم خلق له ، ويجاهد ويجتهد لتطبيق هـــذه العقيدة ، وتحقيق هذه الفكرة . يقول فى بيت : «إن العالم تراث للمؤمن المجاهد، لايشاركه فيه أحد ، ولاأعد مؤمنا كاملا من لا يعتقد أن العالم خلق له».

مقام المسلم مقام الامامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، وليساير الركب البشرى حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملى عليها إرادته ، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم واليقين ، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الارشاد والتوجيه ، ومقام الآمر الناهى ، إذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ، ويضع أوزاره ، ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل فى صراع معه وعراك ، حتى يقضى الله فى أمره . يقول فى بيت : « يقول من لاخلاق له : در مع الدهر حيث دار وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول: إذا لم يسالمك الزمان ، فصارعه وحاربه ، حتى يفىء إلى أمر الله » . ويرى أن المؤمن غـــير مأذون بمجاراة الأوضاع ، بل هو مكلف بمصادمة الأوضاع الفاسدة يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفة الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض ، والعملية الجراحية ، فإن

كل ذلك فى سبيل البناء والعمارة والاصلاح . يقول فى بيت : على المسلم أن يربى فى نفسه الروح ، وينشىء فى هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته ، وينشىء عالما جديداً . يقول متمثلا : « سألنى ربى : هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا يارب . قال : لحطمه ولا تبال » .

ويرى محمد إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة ، والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام . يقول فى بيت : « المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد » . ويقول : إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه » .

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال أن المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح فى التاريخ ومطلع فجر السعادة فى العالم ، وأنه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ورسول الحياة ، ومؤذن الفجر فى الليل البهيم ، وإن أذانه لا يزال صيحة تدوى فى هدوء الليل وسكون الموت ، فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه ، ويؤذن بطلوع الصبح الصادق ، وانصرام الليل الغاسق . وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالى ، الذى ارتفع من جبل « أبو قبيس » قبل ثلاثة عشر قرناً ، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق ، الذى غط فيه خمسة قرون وأكثر ، وكان

نفخة صور للانسانية الميتة والعالم المحتضر ،وهو الكفيل الآن لإيقاظ الانسانية ، وإحياء الضمير البشرى . يقول فى بيت : « إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون» ويقول فى قصيدة : « لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح ، الذى يطلع على هذا العالم كل يوم ، ولست أعلم سره ، ولكنى أعلم أن السحر الذى يهتز له هذا العالم المظلم ويولى به ليل الإنسانية الحالك ، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق أن قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه ، وباندماجه واضمحلاله فى إرادة الله . هنالك يتحول جارحة للقدرة الالهية ، وقوة قاهرة ، لاتصدها الجبال ، ولاتقف فى سبيلها البحار . يقول فى قصيدة أنشأها فى قرطبة : « إن يد المؤمن جارحة القدرة الالهية ، فهى غلابة ، حلالة للعقد والمشكلات ، فتاحة الأبواب المقفلة ، لبقة صناع حاذقة ؛ إن المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ؛ عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غنى عن العالمين » . ويقول على لسان القائد الاسلامى الكبير طارق بن زياد فاتح الاندلس ، وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ويناجى ربه . يقول: « إن الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون، الذين لا يعرفهم غيرك ، وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه . إذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت ، وإذا ركلوا برجلهم

البحر انفلق . انكمشت الجبال وتقبضت عجابتهم، انهم عرفوك وأحبوك، فزهدوا فى العالم، واستغنوا عن الدنيا . لا يطلبون إلا الشهادة فى سبيلك، ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم . لقد أفردت رعاة الابل بنعمتك وميزتهم بين أقرانهم فى الخبر والنظر ، وأذان السحر . لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب ، والتوجه للانسانية المظلومة ، وفى قلوب هؤلاء الجريحة وفى أكبادهم المتقدة وجد العالم مآربه» . بل أن الشاعر يتقدم خطوة ، ويقول : « ماظنك بقوة ساعد المؤمن ! وهو بنظرته يقلب الأوضاع ، وبدعوته يرد القضاء » . والمطلع على التاريخ يصدق ماقاله محمد اقبال . فقد هزىء المسلمون المؤمنون فى عصرهم الأول من الجبال والبحار، وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم من أشواك وعقبات . وقصص سعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى وعقبة بن نافع ومحمد بن القاسم الثقفى وموسى بن نصير وطارق بن زياد شاهدة ، على صدق ماقاله محمد اقبال .

المسلم لاينحصر فى الاوطان والشعوب :

ويرى محمد اقبال أن المسلم حقيقة عالمية لاتنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية ، وكالانسانية العامة ، فى مساحة زمانية شاسعة، كمساحة التاريخ الاسلامى ، وفى مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الاسلامى . يقول فى قصيدة قرطبة : «إن المسلم لاتعرف أرضه الحدود ولايعرف أفقه الثغور . ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً

صغيرة فى بحره المتلاطم . عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ . هو فى كل عصر ساقى أهل الذوق ، وفى كل مكان فارس ميدان الشوق . شرابه رحيق دائماً ، وسيفه ماض فى كل معركة» . ويعتقد محمد اقبال أن العالم كله وطن للمسلم . يقول فى بيت: « المسلم الربانى ليس بشرقى ولا غربى ، ليس وطنى دهلى ولا اصفهان ولا سمرقند ؛ إنما وطنى العالم كله » . ويعتقد محمد اقبال أن المسلم يعتبر كل ملك الله وطناً له . يقول: « لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجال من الجيش ، ولاموه على فعله ، وقالوا له : « لقد قطعت بنا الحبال ، فكيف نرجع إلى بلادنا . فوضع طارق يده على السيف ، وقال : أنا لا أفكر فى الرجوع ، وسنبقى هنا ، ونتخذه وطنا ؛ فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد ، وطن لنا. لا فرق فى ذلك بين العجم والعرب ، والشرق والغرب » .

المسلم متخلق بأخلاق الله :

ويعتقد محمد اقبال أن المسلم يجمع بين المتناقضات من الأخلاق والصفات ؛ وما هى بمتناقضات ، ولكنها ظلال صفات الله ، ومظاهر أخلاق الله . فهو فى تسامحه ، ورحابة صدره ، وكثرة صفحه قد تخلق بخلق « الغفار » ؛ وفى شدته فى الدين ، وغضبه للحق ، وثورته على الباطل قد تخلق بخلق « القهار » ؛ وهو فى نزاهته ، وعفته ، وطهارة ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » ، وفى صلابته إذا تصلب ، وشدة شكيمته إذا

أبى ، وشدة بطشه إذا حارب تخلق بخلق « الجبار » ، ولا يكون المثل الكامل لدينه ، وصورة صادقة للاسلام ، حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة ، فيجمع بين الشدة واللين والغضب والرحمة والصلابة والمرونة ، والعفة والنزاهة ، ويكون فى ذلك آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزات الرسول . ثم يقول الشاعر : « إن المؤمن هو الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم به يعلم رضا الله وسخطه ، وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق فى نظره ، فهو حسن ، وما استقبحه فهو طائش : وفى عزائمه تتجلى إرادات الله ، وهو القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه . ثم إن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة ، فالصبح يطلع كل يوم ، والليل يتبع النهار ، لاتخلف فيه ، ولا تناقض . وهو صاحب معان كثيرة ، ونغمة واحدة ، فهو كسورة الرحمن فى القرآن ، تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » . وقد صدق الشاعر ، فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته ، وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ، ويضرب على وتر واحد ، ويكرر رسالة الأنبياء ، ويقول لكل جيل : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » فهو كالصبح جديد وقديم ، فهو فى جدته ليس أجد منه ، وهو فى قدمه ليس شىء أقدم منه ، هو قديم لكنه يتجدد به العالم ، وتتجدد به الكائنات ، وتنتعش به القوى ، وتستيقظ به الأجسام والقلوب ، والعقول ، ثم جديد بنفسه ، تتجدد قواه ويتجدد نشاطه ، وتتفتح قريحته مع العصور ، علمه سيار ، وعقله مبتكر ، ونفسه طموح ، وهمته وثابة ، وهو كالمطر كل قطرة غير

الأولى ، ولكنها قطرات مطر ، كلها تحيى الأرض ، وكلها تنبت النبات، وكلها تسقى المزارع والأشجار ، وكلها تفتح الأزهار ، وكلها تكون الأنهار ، وهو معنى قول النبى ﷺ « أمتى كالمطر لايدرى أأوله خير أم آخره » .

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقا :

ويقول محمد إقبال : « إن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة ، طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة » . وقد صدق ، فإن الإسلام لم ينكب فى ناحية من نواحى العالم ، ولم يخسر فى جانب دولة إلا وقامت له دولة فى جانب آخر ، ولم تسقط له راية إلا وخفقت له راية أخرى ، ولم يغب له نجم ، إلا وطلع له نجم آخر . لقد كانت خسارة الأندلس الاسلامية كارثة كبيرة ، ومصاباً عظيماً ، ولكن عوض الإسلام بها بدولة فتية من أعظم دول العالم ، هى دولة آل عثمان فى تركيا قامت فى نفس القارة الأوربية ، وجثمت على صدر الدول ، والأمم التى انتزعت الأندلس الاسلامية ، وأجلت المسلمين من وطنهم العربى الاسلامى وكان سقوط غرناطة، وأوج الدولة العثمانية، فى عهد سليمان القانونى، حادثين فى عصر واحد ونكب العالم الاسلامى، ونكبت بغداد بغارة التتار ، وانطمست معالم الحضارة الإسلامية ، وزلزل المسلمون زلزالا شديداً ، ولكن فى نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة فى الهند تتسع وتزدهر . وأصيب العالم الاسلامى بهزات عنيفة، وقواصم

مؤلمة فى فجر هذا القرن المسيحى على أيدى الأوروبيين ؛ فقد اقتسمت الدول الأوروبية تراث الدولة العثمانية كمال سائب ؛ واغتصبت ممالكها فى أفريقيا ، وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق ، ولكن تبع هذا كله اليقظة الاسلامية الهائلة ، والوعى السياسى القويم ، والطموح إلى الاستقلال والحرية ، والحركات الاسلامية المختلفة التى كان يجيش بها العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

ونكب المسلمون فى العهد الأخير نكبات عظيمة فى الشرق الأقصى والأوسط ، وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الاسلامية ولكن فى نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان فى الشرق ، إحداهما دولة باكستان والأخرى إندونيسيا .

وهكذا لم يزل التاريخ الاسلامى متأرجحا بين الأسفل والأعلى ، فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر ، كالأرجوحة تماماً ؛ ولم تتوار شمسه فى أفق إلا وبزغت فى أفق آخر . وذلك لأن الاسلام رسالة الله الأخيرة التى لا رسالة بعدها ؛ والمسلمون هم الأمة الأخيرة ، التى لا أمة بعدهم ، فاذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة ؛ واذا هلكوا فقد غرقت السفينة التى تحمل الذخيرة .

* * *

مكان « المسلم » فى الوجود(١)

قال المؤلف فى ترجمة الامام جلال الدين الرومى ، فى كتابه « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » .

« لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة ، والفلسفات الخاطئة ، والأديان المحرَّفة ، على الاستهانة بقيمة الإنسان ، والحط من قدره وشره ، وقد نشأ — بتأثير الحروب الطاحنة التى كانت لا تكاد تنقطع ، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية — مقت شديد فى الناس للحياة ، وتبرم من امتدادها واستمرارها ، وقنوط من المستقبل، وشعور عميق بالمهانة ، أو ما يسمى اليوم « بمركب النقص » وأصبح الإنسان حقيراً فى عينه .

وجاء بعض « المتصوفين » العجم ، فدعوا دعوة متحمسة إلى « الفناء » الذى تمثله الجملة المأثورة فى الأدب الصوفى ؛ « موتوا قبل أن تموتوا » ، وغلوا فى إنكار الذات حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحب الذات الذى يتوقف عليه الكفاح ، والحركة والنشاط جريمة خلقية ، وحجر عثرة فى سبيل الكمال الروحى ، وقد أسرف الدعاة والمؤلفون فى الحث على اكتساب الصفات الملكية ، والإنسلاخ من اللوازم البشرية ، حتى أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته ، وأصبح يعتقد أن رقيه فى الثورة على الإنسانية ، لا فى الاحتفاظ

---

(١) مقال أضيف إلى الطبعة الثانية من الكتاب .

بإنسانيته ، وأنه كلما كان أبعد من الإنسانية ، وأشبه بالملائكة ، كان أقرب إلى السعادة والكمال .

ونشأ ـــ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات ، وانحلال المجتمع ، وجور الحكومات ـــ أدب متشائم ، وشعر متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل « أبو العلاء المعرى » في عصره .

وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامة الثقة بنفوسهم ، والأمل في مستقبلهم ، والرغبة في حياتهم ، وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال منكسر الخاطر ضعيف الارادة محطم الأعصاب ؛ قد يحسد الحيوانات في حريتها ، والجماد في سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لانسانيته شرفاً ، ولا يعرف ذلك الجـــو الفسيح الذى هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقوى الجبارة ، والمواهب العظيمة ، التى أودعها الله فى باطنه ؛ ولا يعرف أنه قد خلق ليكون « خليفة رب العالمين » فى هذا العالم الفسيح و « وصياً عليه » .

وأخضع له هذا الكون ؛ وما كان سجود الملائكة لأول البشر إلا إشارة لهذا الخضوع ؛ فانهم هم الذين يتصرفون فى هذا الكون بأمر الله ، ويبلغون رسالاته ، فاذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى .

فى هذا المجتمع الثائر على الإنسانية ، الذى كفر بالإنسان وقيمته ومركزه فى هذا العالم ، قام مولانا « جلال الدين الرومى » يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة فى شعره الرنان ويثير كرامة الإنسان المطمورة فى أنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية فى حماسة وإيمان وبلاغة ، حتى دبّ فى المجتمع دبيب الحياة ، وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنح بهذا الرجز والحداء القوى « الادب الإسلامى » كلـه ، وردّده الشعراء ، وضربوا على وتره ، وانطلقت فى عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى « الاعتزاز بالإنسانية » (١) .

وجاء دور الفلسفة الغربية ، وسيادة أوروبا الثقافية والسياسية وقد ورثت عن كنيستها النصرانية وتفكيرها المسيحى الفكرة الرهبانية ، وعقيدة الكفارة والفداء المؤسسة على كون الإنسان مذنباً بالفطرة والوراثة ، واحتياجه إلى من يكون كفارة له وفداءاً ، هـذا بجنب المادية الرعناء التى تصورت الإنسان فى آلة الإنتاج ، وماكينـة مسخرة ، وحيوان راق منتج لا يعرف إلا إشباع الغريزة ، وإرضاء النهامة ، وإنتاج الرائج النافع للسوق وتجاهلت جميع الدوافع الخيرة المخلصة ، والقيم الروحية ، والآفاق الباطنية ، وجعله مخلوقاً تافها خاضعا للنواميس الطبيعية العمياء .

---

(١) « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ٢٩٤ = ٢٩٦ «الطبعة الأولى»

وقد كان للمسلم الشرقى أكبر نصيب فى هذا اليأس والتشاؤم ، وفى إنكار الذات ، وفى الجهل بقيمته ، وكرامته ، فقد فقد السيادة والسيطرة فى بلاده ووطنه الإسلامى الكبير ، وخضع للنفوذ الغربى السياسى والاجتماعى ، وبهره بريق الحضارة الغربية ، فذاب أمامه كما تذوب الشمعة فى وهج الشمس ، وفقد الثقة بنفسه ومستقبله ، وبقيمته وغنائه وأصبح أضعف نفسا وإرادة ، وأقل ثقة بالنفس ، من معاصره الأوروبى ، فقد ضعف إيمانه بدينه وشخصيته ، وحرم المجتمع القوى الذى يعيش فيه ، والحضارة الفتية التى يعتز بها ، والحكومات القوية الغنية التى يستند إليها ، فأصبح إنساناً هزيلا لاقيمة لنفسه فى عينه ، ولا أمل له فى المستقبل .

وجاءت النظم السياسية والفلسفات الاقتصادية ، والحكومات الشرقية — فى آسيا وأفريقيا — وجاء الأدب الحديث ، والشعر المعاصر ، والصحافة والنقد ، فلم يضرب كل ذلك إلا على الوتر الواحد ، ولم تردد إلا نغمة واحدة ، كلها تتجاهل قيمة الإنسان المؤمن ، وقيمة الفرد المسلم ، وكلها تتناسى رسالته الخالدة ، ومضمراتها ومكنوناتها التى لانهاية لها ، وقوتها المعجزة المغيرة للأوضاع ، وكلها تجهل مواهبه ، وطاقاته المخبوءة ، وكنوزه وثرواته الدفينة ، وكلها تجهل قوة إيمانه التى تصنع العجائب ، وتبطل التجارب ، وقوة مغامرته ، ومدى إخلاصه ، وتجرده من الأغراض ، ونزاهته وقدسه ، وتمرده على المثل والمكائيل المصطنعة ، والحدود والقيود المحدودة ، وشجاعته واستهانته بكل ماظل الإنسان

يخافه ويحذر منه ، ويحسب له الحساب منذ آلاف من السنين ، وكلها تتطفل على مائدة الغرب وتستجدى منه ماتعيش عليه من مرذول الطعام ومجوج الكلام ، والقديم البالى من النظم والأفكار ، والعلوم والآداب، لافرق فى ذلك بين حكومات فردية شخصية ، وبين حكومات جمهورية اشتراكية ، أو ثورة شيوعية ، كلها تلتقى على فكرة واحدة عن الإنسان، ونظرة واحدة إلى المسلم ، الذى تستمد منه قوتها ، وتتوصل بنخوته وحماسته إلى كرسى الحكم .

فى هذا الجو الفاتر الخائر يقوم محمد إقبال ، ويتغنى بشخصية هذا الإنسان المسلم ، ويثير فيه النخوة والإباء ، ومعرفة الذات ، والثقة بالنفس ، ويريه مكانته فى الوجود ، ومركزه فى العالم الإنسانى ، وينقله من عالم اليأس والتشاؤم ، واحتقار الذات وجهل النفس ، إلى عالم كله أمل وعمل ، وكله بطولة ومغامرة ، وكله سيادة وسيطرة ، وكله اعتداد واعتزاز ، وكله طرب واهتزاز ، وكله ابتكار وإعجاز ، فيقول فى قصيدة فارسية له :

عجباً لك أيها المسلم ! تجلت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، إلى متى تظل غافلا جاهلا ؟ وتجلس ضائعاً عاطلا ، إن نورك الوهاج أنار العالم القديم ، ونسخ الليل البهيم ، ولا تزال « اليد البيضاء » التى ورثتها عن موسى ، فى كمك ، تخط حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها والفائق عليها . فقد كنت ولم تكن وستكون ولا تكون ، هل تخاف

الموت أيها الإنسان الحى الخالد ؟ لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له وترصد به . اعلم يقيناً ، ان الكريم إذا وهب شيئا لايسلبه ولا يشرده ، وليس حتف ابن آدم فى فراق الروح ، إنما حتفه فى ضعف الإيمان ، والحرمان من اليقين (١) »

ويقول فى قصيدة فارسية أخرى ، تمتاز بحلاوة الجرس وعذوبة الموسيقى ، تصبح بها نشيداً مثيراً للشباب المسلم الطموح ، وهو يهيب بهذا المسلم ، المتشائم اليائس ، المتثاقل الناعس ، المتخلف عن ركب الحياة ، المتنازل عن القيادة والإمامة ، يقول :

« افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذى لا يطبق عينه لحظة ، ولا يعرف الكرى إليه سبيلا ، لقد أغار على وكرنا الأعداء ونهبوا كل مافيه ، من كنوز وخيرات ، ألا يكفى هدير الحمام ، وصفير الأذان ، وأنين القلوب والأرواح أن يوقظك ، انتبه من هذا السبات العميق ، الذى طال أمده واشتدت وطأته .

لقد بدأت الشمس رحلتها المباركة المتكررة . وارتفع عمود الصباح المنير فى بحر الظلمات . وحزمت القوافل فى الجبال والصحارى أمتعتها . وضربت أجراس الرحيل ، فما لك أيتها العين الساهرة ! التى خُلقت لمراقبة الانسانية ، وحراسة الضعفاء ، تنامين ، ولا تنظرين إلى ما يدور

---

(١) « زبور عجم » ١٦٤ .

حولك من الأحداث والتقلبات ، انتبه من السبات العميق ، الذى طال ، واشتدت وطأته .

لقد أصبح بحرك هادئا ساكنا كالصحراء ، لقد فقد طبيعته وجمد ووقف ، فلا مد فيه ولا جزر ، ولا زيادة فيه ولا نقص ، عجبا لهذا البحر الذى لا يهيج ولا يموج ، وليس فيه تمساح طموح مخامر ، ولا موج عارم ثائر ، لقد كان جديراً بك أن تقفز من حدوده الضيقة الهادئة ، وتفيض على البرارى والقفار ، والنجاد والأغوار ، انتبه من سباتك العميق الذى طال أمده واشتدت وطأته .

اعلم أن الوطن جسد من تراب ، والدين هو الروح ، ولا حياة للجسد والنفس ، إلا بارتباط الجسد والروح ، انهض أيها المسلم ! وفى إحدى يديك « المصحف » وفى الأخرى « السيف » فباجتماعهما تسعد البشرية ، وتخصب المدنية ، انتبه من السبات العميق الذى طال أمده واشتدت وطأته .

أنت للناموس الأزلى حارس وأمين ، ولسيد هذا الكون يسار ويمين(١) ، لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم ، اشرب كأسا فائضة من اليقين ، وانهض من حضيض الظن والتخمين ، انتبه من السبات العميق ، الذى طال أمده ، واشتدت وطأته .

---

(١) يعنى أنه آلة بيد القدرة الإلهية ، وجارحة لها .

الغياث من الأفرنج الذين خلبوا العقول ، وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقة والدلال ، ومرة بالقيود والأغلال ، وتارة مثلوا دور « شيرين » وطوراً لعبوا دور « أبرويز » (١) لقد أصبح العالم كله خرابا يبابا بإغارتهم وغزوهم .

ياباني الحرم ! وياخليفة ابراهيم ! انهض لبناء العالم من جديد ، انتبه من السبات العميق ، الذى طال امده ، واشتدت وطأته » (٢) .

ويقول فى قصيدة أردية تكاد تسيل رقة وعذوبة :

« لقد هبت على نفحة منعشة من نسيم السحر فى الصباح الباكر فناجتنى ، وقالت لى : إن الذى عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرة السلاطين ، إنه لا حياة لك ولا قوام ، ولا شرف ولا كرامة إلا بهذه المعرفة ، فإذا ملكتها ، ملكت العالم ، وإذا فقدتها ، أصبحت من سقط المتاع ، إنه يتربى فى مدرسة شعرى وأدبى شباب لا يملكون درهما ولا ديناراً ، ولكنهم يملكون صولة السلاطين ويحسنون آداب الملوك ، إن لك الخيار ، فاختر ماشئت ، ولكننى

---

(١) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء فى إيران والهند ، تمثل فيها « شيرين » دور المرأة الفاتنة التى هام بها الأبطال ، و « أبرويز » دور الملك القاهر الذى عشقها ، واستأثر بها .

(٢) « زبورعجم » ص ١٠٦ - ص ٢١٨ باختصار وتوسع .

بدوى ، لم يعجبنى الفرار من الحيـــاة ، والعكوف فى الزوايا والخلوات ..

لقـد هيأك الله ، أيهـا الشاب المسلم ! لاقتناص « هما » (١) وما هذه الطيور والأسماك التى تملأ العالم إلا لتتمرن عليها فى بـدء أمرك ، ويتلهى بهـا غيرك ! وما نطقك بالشهادتين أيهـا المسلم ! سواء كنت عربياً أو أعجميا ، إلا حديثا غريبا ، حتى يشهد بهـا قلبك . (٢)

ويقول فى قصيدة خفيفة الوزن ، قصيرة البحر ، سهلة اللفظ ، كأنها قطعة من نثر ، أو حديث من أحاديث الناس :

« إن كل مافى العـالم من الظواهر الـكونيـة ، أو الأجرام الفلـكية ، راحل زائل ، وغائب آفل ، أنت ـــ أيهـا الانسان المسلم ـــ بطل المعركه ، وقائد الجيش ، وكل ماحولك من سافل وعال ، ورخيص وغال ، من جنودك وأتباعك . أسفاً لك ، أيهـا الرجل ! لم تقـدر نفسك ، ولم تحسب لهـا حسابا ، ما أشد جهلك ، وما أضيق نظرك ! إلى متى تجرى وراء الدنيـا الذليلة ،

---

(١) طائر أسطورى فى الأدب الفـارسى والأردى يضرب به المثل فى اليمن والسعادة ، ويقال إنه ما أظل إنساناً ، وما طار فوق رأس إنسان إلا وكان ملـكا فى يوم من الأيام .

(٢) « بال جبريل » ٦٧ — ٦٨ .

وتعبدها وتخضع لها ؟ إما أن ترفضها رفضاً باتاً ، وتزهد فيها وتتبتل ، وإما أن تملك ناصيتها وتسود وتحكم ، لامنزلة بين المنزلتين ، ولا توسط بين النهايتين » .

وهذا قليل من كثير جداً ، تطفح به كتبه ، ودواوين شعره وفى هذا بلاغ للشباب المسلمين الذين خضعوا لنظام التربية الحديثة ، والفلسفات المادية ، التى حجبت عنهم شخصيتهم ، وآفاق عالم الروح والقلب ، وأعماق النفس البشرية ، ومرامى المؤمن القوى الطموح ، ولم تصور العالم إلا سوق تجارة أو مركز انتاج ، أو حانوت خمر ، أو بيت مقامرة ، أو مكان تنافس للقيادة ، وصراع فى مجال الاقتصاد والسياسة ، « ذلك مبلغهم من العلم » .

برلمان ابليس

فى ديوان محمد إقبال الأخير «أرمغان حجاز» (هدية الحجاز) قصيدة بديعة وصف فيها وصور جلسة برلمانية؛ حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الابليسى، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التى تهدد مهمتهم فى العالم وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم. وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها «ابليس» لحكم على هذه الآراء والدراسات، وعارض أكثرها فى ضوء تجاربه الواسعة، وبعد نظره الذى لايشاركه فيه أحد من تلاميذه. وأدلى برأيه الحصيف المؤسس على الدراسة الواسعة العميقة، وهو يتلخص فى: أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفؤ لنظامه، وهو الشرارة التى تتحول ناراً بسرعة؛ فالمصلحة والرأى أن يركز «الزملاء» تفكيرهم على محاربة هذا العدو، أو إلهائه وتنويمه. وقد جاء فى هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من

المذاهب السياسية وزعمائها ، ما يفيد الاطلاع عليه ، وإليكم محضر الجلسة :

« ان الشياطين وزملاء ابليس وأعوانه اجتمعوا فى مجلس شورى ، وتباحثوا فى سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الابليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا فى فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم ، وجللوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثانى : لا يهولنك أمرها ، فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى ، إذ رأينا الانسان بدأ ينتبه ويفيق ، ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن فى الأمير والملك ، ان الملوكية لا تنحصر فى وجود شخص ترتكز فيه الملوكية ، وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الانسان عيالا على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سـواء فى ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهورى ، وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم فى هذه الفتنة الدهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذى ليس نبياً ، ولكنه يحمل عند أتباعه كتابا مقدساً ، هل عندك نبأ ، أنه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مبانى الإمارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : ياصاحب الفخامة ، إن سحرة أوربا ، وإن كانوا مريديك المخلصين ، ولكن لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسى الاشتراكى) قد كاد يأتى على العالم بقواعده ، فاستنسر البغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وها هى قد استفحلت وتفاقم شرها ، وهاهى الأرض ترتجف بهول فتنة الغد . ياسيدى ان العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك ، وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : إنى أملك زمام العالم ، وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجباً ، إذا حرشت بين الامم تهارشت الكلاب ، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ؛ وإذا همست فى آذان القادة السياسيين ، وأساقفة الكنائس الروحانيين ، فقدوا رشدهم ، وجن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الانسان والانسان لايرفوه المنطق المزدكى (يعنى الفلسفة الاشتراكية) لايخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً ، فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح

كامنة فى رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ؛ لايخفى على الخبير المتفرس أن الاسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فتنت بالمال ، وشغفت بجمعه وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الاسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضىء لها العالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها ، وتوقظ هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة محمد ﷺ إنى أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ ، حامى الذمار ، حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين فى أموالهم ، أمناء الله ، وكلاء على الأموال ، وأى ثورة أعظم ، وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل ، يوم صرخ : إن الارض لله ، لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم ، أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الإيمان بدينه ،

خير لنا أن يظل مشتغلا بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطيء سحره اشغلوه يا اخوانى ! عن الجد والعمل ، حتى يخسر الرهان فى العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره . ياويلتنا ! وياشقوتنا ! لو انتبهت هذه الأمة ، التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتحسبه »(١) .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلا نجح شياطين الإنس والجن فى مهمتهم ، وكانت مؤامرة مبيتة ضد الاسلام ، وخطة منظمة ضد أجياله القادمة ، فأكبر مااهتموا به هو إطفاء الجمرة الإيمانية ، التى لاتزال كامنة فى الرماد ، وتجريد المسلمين فى بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية والعاطفة الاسلامية ، التى تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحمل الشدائد والمكاره ، فى سبيل الله ، والثورة على الباطل ، وقد أوصى بذلك ابليس أشياعه وجنده . يقول محمد اقبال فى قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) : « إن المجاهد الذى يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روح محمد ﷺ من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٣٠ - ٢٣٣ .

جزوعاً من الفقر ، شديد الخوف من الموت، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تتمكنون بذلك من إجلاء الاسلام من الحجاز واليمن، ان في الأفغان غيرة دينية ،وعلاجها أن يقصى العالم الديني من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليم ، الذى يجرد الشباب المسلم من الروح الديني والعواطف الاسلامية والعقلية الاسلامية ، وينشيء فيه طبيعة النفعية والأبيقورية ، وطبيعة التهام الحياة ، والتهاب المسرات ، وتقديس المادة ورجالها ، وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشك في الدين ، لذلك يرى شاعر هندى آخر اسمه أكبر الإله آبادى : أن فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني اسرائيل فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ، ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللعنات ، فكان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني اسرائيل ، وعائلتهم في المستقبل ، ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار، وبعد النظر، ودقة التفكير لا كتفى بتأسيس كلية لبني اسرائيل ينشيء الجيل الاسرائيلي الجديد كما يشاء . ويسبك العقول والطبائع سبكا جديداً ؛ لايدع إمكاناً لنشأة شاب مثقف ، يشعر الشعور الديني ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية، ويهتم بشيء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات والدرجات ، لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوء الأحدوثة ، ووصل إلى غايته في سهولة

ويسر ، وهدوء وسلام ، وزيادة على ذلك اشتهر فى الناس بلقب « حامى العلم » و « مربى الجيل » وناشر الثقافة والتعليم فى الشعب .

نجاح أنصار الباطل فى اضعاف الروح الدينى :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحا كبيراً فى فكرتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الدينى فى بلاد الإسلام وخمدت جذوة الايمان ، وفقدت البطولة الاسلامية وروح الجهاد ، وفشت النفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر ، وقد ساح فى كثير من البلاد الاسلامية والعربية : « لقد تجولت فى بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبى لهب كثيرين تفيض بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر والعنقاء المغرب » . ويقول فى قصيدة قالها فى فلسطين « لا أرى فى بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التى كان يمتاز بها العرب ، ولا فى بلاد العجم ذلك السمو الفكرى الذى كان يمتاز به العجم ، لاتزال دجلة والفرات متعطشين إلى بطل من أبطال الإسلام ، ولكنى لا أرى فى قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذى وقع فى حياة المسلمين ، ويتألم لذلك أشد الألم ، ويبكى دما ، وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع يقول فى أبيات : يا وارث التوحيد الاسلامى لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر ، والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوما من الأيام ، إذا نظرت إلى أحد ، ارتعد فرقا منك ، وطار قلبه شعاعا ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس لاتحمل روحا ولا تجذب نفوسا » . ويقول فى موضع

آخر : « إن السجدة التى كانت تهتز لها روح الأرض ، لقد طال عهد المحراب بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع فى مصر ولا فى فلسطين ذلك الأذان الذى ارتعشت له الجبال بالأمس » . ويقول فى بيت : « لقد فقد المسلم لوعة القلب ، وانطفأت نار الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب » . ويقول : « لم أر فى محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة ، قد بحثت عنها موجة موجة ، وتفقدتها صدفة صدفة » .

ويرى محمد إقبال أن مصدر هذا التدهور هو القلب الذى خوى من الإيمان وشعلة الحياة . يقول : « لقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق ، ونزف منهم دم الحياة ، أصبحوا هيكلا من عظام ، لا روح فيه ولا دم ، الصفوف زائغة ، والقلوب مضطربة ، والسجدة لا لذة فيها ذلك لأن القلب خال من الحنان » .

اليقظة الاسلامية :

هذا ولكن محمد إقبال يعتقد أن الصدمات السياسية التى أصيب بها العالم الإسلامى أقضت مضجع المسلمين ، وأيقظتهم ، ودب فيهم دبيب الحياة ، يقول فى قصيدته البليغة « طلوع الاسلام » : « إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق ، فاعلم أن الفجر قريب ، ها هى الشمس قد ذر قرنها من الأفق ، وولى الليل على أدباره ، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الاسلام ، فإنما تتكون اللآلىء فى البحر المتلاطم المائج ، ولقد دب دبيب الحياة فى الشرق ، وجرى الدم الفاتر فى عروقه الميتة ،

وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابي . إن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي » . ويقول في بيت : « إن إقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة ، فانها اذا سقيت ، أتت بحاصل كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخت وهرمت ، وأينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وأن العالم القديم ، الذي حوله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة ، منهار قريباً ، والإنسانية تتمخض بعالم جديد . ويعتقد محمد إقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه ، إلا من بنى للانسانية البيت الحرام بالأمس ، وورث ابراهيم ومحمدا ﷺ في قيادة العالم وإرشاده ، فيهيب محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشده بالله أن يقوم ، ويمسح النوم من عينيه ، فقد ظهر الفساد في البر والبحر ، وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها ، وخربوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتا من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولكن الأوربيين قد حولوها إلى خمارة ، وبيت فسق ودعارة ، ومكان نهب وغارة ، وقد آن لباني البيت الحـــرام وحامل رسالة الاسلام أن يقوم ، ويصلح ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيت إلى قواعد ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالم من جديد .

* * *

إلى الأمة العربية

خصص محمد إقبال قصيدة من أبدع قصائده للحديث مع الأمة العربية . ليسجل فيها فضلها وسبقها ، فى حمل الرسالة الإسلامية ، والأخذ بيد الإنسانيه ، وافتتاحها لتاريخ جديد وفجر سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى موضوعه الحبيب الأثير . فيذكر الشخصية الحبيبة . التى كانت على يدها نهضة هذه الأمة وسعادتها . بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسل على عادته النفس على سجيتها ، ويعطى القلب والعاطفة زمامه . ويسترسل فى الحديث . فيقول :

« أيتها الأمة العربية ، التى كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، من الذى سمع العالم منه نداء « لا قيصر وكسرى » لأول مرة فى التاريخ(١) ومن الذى أكرمه الله بالسبق إلى قراءة القرآن ؟. من الذى أطلعه على سر -

---

(١) يشير إلى الحديث المشهور : « إذا هلك قيصر ، فلا قيصر بعده ، وإذ هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

التوحيد ، فنادى بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » وما هى البقعة التى اشتعل فيها هذا السراج الذى أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فتات مائدتكم ، وهل قوله تعالى : (فأصبحتم بنعمته إخوانا) إلا وصف حالكم . إن نفس ذلك الأمى أعاد على هذه الصحراء الخصب والنمو ، فأنبتت الأزهار والرياحين . إن الحرية نشأت فى أحضانه ، وإن حاضر الشعوب ليس إلا وليد أمسه ، إن الجسد البشرى كان بلا قلب وروح ، فأعطاه القلب والروح . وكشف اللثام عن جمال وجهه ، إنه حطم كل صنم قديم ، وأفاض الحياة على كل غصن ذاو من أغصان العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالا وقادة مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارة يدوى الأذان فى ساحة الحرب ، وتارة تتحلى الآذان بقراءة (الصافات(١)) بين صليل السيوف وصهيل الخيول ، إن سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبى ، ونظرة الزاهد الأواب كأبى يزيد البسطامى ، مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة .

إن العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإن ذكر جلال الدين الرومى ، وفكر فخر الدين الرازى يلتجئان تحت ردائه ، إن العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك ، والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسة من نوره ، وليست « الحمراء » فى غرناطة ، وقصر التاج

---

(١) يشير إلى سورة « الصافات » .

فى آكره(١) ، اللذان خضع لجمالهما ، وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزاهدين ، ليس إلا صدقة من صدقات بعثته ، ومظهراً من مظاهر عبقرية أمتـه . إن بعض ظاهره تجلى فى سمو ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه ، فقد تقاصر عن إدراكه كبار العارفين .

لقـد كان الإنسان حفنة من تراب . وقبضة من أشـلاء وعظام ، لا يدرى ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرفه بالعلم والايمـان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان . فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء » .

يذكر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة ، حين كان نظام العـرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التى لا هم لها فى الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مثلهم كمثل السيف المفلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ولـكن ليست له ظبة فهو لا ينتفع به . فيقول الشاعر :

« أيها العرب(٢) ! قد من الله عليـكم ، إذ جعلـكم مثل السيف البتار أو أحد منه . وكنتم ، فيما قبل ، ترعون الإبل فى الصحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لـكم

---

(١) يعنى « التاج المحل » الذى بناه الامبراطور المغولى « شـاه جهان » . ويعتبر آية فى الفن المعمارى ، ويأتى إليه الجوابون والزائرون من أقاصى البلاد .

(٢) من ترجمة الأستاذ سـعيد الندوى بتوجيه من المؤلف . وقد تناولها بالحذف والزيادة .

المقادير ، فضلا عن الإبل ، فأصبحتم من مالكى أعنتها ، فلو اقسمتم على الله لأبركم ، وهنالك دوت تكبيراتكم وصلواتكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم ، بين الخافقين ، فارتج بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلك المغامرات ، وما أجمل تلك الغزوات » .

وبعدما يمدحهم الشاعر ، ويذكر حماستهم الإسلامية ، وغضبتهم المضرية فى الله ورسوله ، ويُبدى فرحه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن ، والتألم بما يرى من خمود العرب ، بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفرقة بعد الوحدة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة . ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفا على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدمت وسبقت ! أما أنتم ، فما قدرتم قدر هذه الصحراء التى نشأتم فيها ، وهذه الحرية التى ورثتموها ، كنتم أمة واحدة ، أمة الاسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزبا واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزابا ، لقد فرقتم جمعكم ، ومزقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسكم » .

« اعلموا أيها السادة ! أن من ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ومحى من الوجود ، ومن فر من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان

والشقاء ، والطرد والجلاء ، ألا إنه لم يجن عدو على عدو مثل ماجنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يسيء أحد إلى أحد إساءتكم إلى أمتكم ، إنكم آذيتم روح رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهى متألمة متوجعة شاكية مستغيثة » .

الشاعر عارف بمكائد الافرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ، وحبائل منصوبة ، وهو شديد المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم ، فهو يتألم ، إذ يرى فى الأمة العربية من يحسن الظن بهم ، ويعتمد عليهم فى بناء صرح الحياة ، وفض المشكلات ، فيرسل صيحته وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلا أيها الغافلون ! إياكم والركون إلى الافرنج ، والاعتماد عليهم ، إرفعوا رءوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة فى مطاوى ثيابهم . ألا إنه لا حيلة لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم وتذودوهم عن حوضكم ، إن حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سليبة حزينة ، لا تملك شيئا ، إنها مزقت وحدة العرب ، واقتسمت تراثهم ، إن العرب لما وقعوا فى حبالهم ، تنكر لهم كل شىء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يجدوا من يرثى لهم ويرفق بهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر فى بيان شرور الافرنج ومكائدهم ، ويحذر العرب من الانسياق إليهم والوقوع فى شركهم ، يقبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

«إن الله قد رزقكم البصيرة النافذة ولا تزال فيكم الشرارة كامنة ، فقوموا أيها العرب ! وردوا فيكم روح عمر ابن الخطاب مرة أخرى ، إن منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين وما دامت ضمائركم أمينة للسر الالهى فياعمّار البادية ! أنتم الحراس للدين ، وأمناء الله فى العالمين .

إن غريزتكم العربية الإسلامية ميزان للخير والشر ، وأنتم ورثة الأرض ، إذا تألق نجمكم فى آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين، وطوى بساطهم . لن تسعهم الصحراء والفيافى ، فاضربوا خيمتكم فى وجودكم، الذى يسع الآفاق كونو أسرع من العاصفة وأقوى من السيل ، حتى تسرع ركائبكم فى مضمار الحياة وتسبق الريح » .

« ليت شعرى ! من خلفكم فى الحياة ؟ ! إن العصر الحاضر وليد نشاطكم وكفاحكم، وصنيع جهادكم ودعوتكم، ومازلتم سادته وولاته حتى أفلت زمامه منكم ، فتبناه الغرب وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فقد هذا العصر وهذا المجتمع الإنسانى شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقا خليعا ، ثائراً على الدين » .

فيا رجل البادية ! ويا سيد الصحراء ! عد إلى قوتك وعزتك ، وامتلك ناصية الايام ، وخذ عنان التاريخ ، وقد قافلة البشرية إلى الغاية المثلى » .

وهنا نبذة أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ

ضياع الأمة الإسلامية ، وانطفاء شعلة الحياة والإيمان فى نفوس العرب ، ويشكو وحدته وغربته فى هذا المجتمع الإسلامى البارد الجامد ، ويناجيه مناجاة من قام بين يديه ، وأذن له فى الكلام . ويقول :

لقد تشتت شمل أمتك يامحمد ! يارسول الله ، فإلى أين يلجأ المسلم الحزين وإلى من يأوى ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع وذلك القلق الذى عرفت به ، فإلى من أشكو ألمى ، وأين أجد من يساعدنى على آلامى وأحزانى ؟ وماذا يفعل حادى أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ، ويطوى السفر البعيد ، فى هذه الجبال والمهامة ، وقد ضل سبيله ، وفقد زاده ، وانقطع عن الركب . بالله ! قل لى ماذا يصنع حامل دعوتك ، المؤمن برسالتك ، وأين يجد زملاءه ورفقته ؟ »

ويؤلم الشاعر ، أن يرى العرب لايزالون ينظرون إلى الأوربيين الانجليز والأمريكيين ، كأصدقاء مخلصين وأعوان منجدين ؛ يحلون لهم مشكلة اللاجئين ، ويردون إليهم أرض فلسطين ، مع أنهم لايزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسى والاقتصادى والصحافى ، يقول :

« أنا أعلم جيداً يا إخوانى العرب ! أن النار التى شغلت الزمان وبهرت التاريخ ، لم تزل ولاتزال تشتعل فى وجودكم ، صدقوا أيها السادة ! إنه لادواء لكم فى جنيف ولا فى لندن ؛ لأنكم تعلمون أن اليهود

لايزالون يتحكمون فى سياسة أوروبا ، ولا يزالون يملكون زمامها . إن الأمم لاتذوق طعم الحرية والاستقلال حتى تربى فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرف لذة الظهور » .

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلطف واعتذار :

« معذرة ياعظماء العرب ! لقد أراد هذا الهندى (١) أن يخاطبكم ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندى ؟ ونصيحة العرب أنكم كنتم يامعشر العرب أسبق الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدين ، وإنه لايتم الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاع عن « أبى لهب » ؛ وإنه لايصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت ؛ كذلك لاتتم الفكرة الاسلامية إلا بانكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية . إن العالم العربى ، أيها السادة ! لايتكون ولايظهر إلى الوجود بالثغور والحدود وإنما يقوم على أساس هذا الدين الإسلامى وعلى الصلة بمحمد ﷺ » .

* * *

(١) لايغرب عن البال أن محمد إقبال توفى قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

في جامع قرطبة

وقف محمد إقبال — فى عام ١٩٣٢ م ، الذى زار فيه اسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود — فى جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ؛ وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذى جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية ، التى كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ؛ وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحب الطاهر ، الذى حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذى أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التى أنتجت هذا الأثر البنائى الخالد ، وأمام الفن الاسلامى العربى الذى ظهر فى تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كل ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أن هذا المسجد العظيم صورة للمسلم فى هذه الارض الحنون ، تجلت فيه أخلاق المسلم وصفاته : علو فى الهمة ، واتساع فى القلب ، وبساطة فى المظهر ، وبراءة فى النية ، وثبات على الحق ، وإعلان للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ؛ تذكر — والشيء بالشيء يذكر — بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوي في الجو ، وكان أول مايسمعه الناس وآخر مايسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظير في الأصوات والهتافات والاعلانات والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ، وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا ، ومابين العالم اليوم ، وبين الصبح الصادق ، إلا هذا الأذان الصادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلأ إيمانا ويقينا بأن الأمة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة — التي كتب لها الخلود — لا تموت ولا تفنى .

حرك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخي ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والألحان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في أسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أن هذا العالم خاضع للفناء ، وأن الآثار التى تخلفها الأجيال ، وأن البدائع الفنية التى تنتجها العبقرية الانسانية بين حين وآخر كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات . إلا ذلك الأثر ، الذى أكمله عبد مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ، لأن عمله يستمد الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبه القوى الخالص (١) — والحب هو أصل الحياة الذى حرم الله عليه الموت — إن الدهر سريع ورفيق فى سيره ، وهو تيار عنيف لا يقف فى طريق شىء ، والحب هو القوة الوحيدة التى تقفه لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إن الحب غير خاضع للنظام الرياضى المرسوم ، فله عصور ليس لها اسم فى لغتنا ، الحب هو الذى تجلى فى الرسالات السماوية وفى الأخلاق النبوية ، وهو الذى أفاض على الكون النور والسرور ونشوة الخمور ، التى سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحب قد يقف إماما فى المحراب ، وحكيما يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب ، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالة لا يزال فى سير وانتقال ، وحل وترحال ، له منازل ومقامات يمر بهـــا ويخلفها وراءه ، هو الذى أطلق قيثارة الحياة

---

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هى العاطفة التى تسمو على المادة والمعدة ، وهى حقيقة جامعة بين الايمان والحنان ، لا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذى استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعر العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « تدين أيها المسجد العظيم ! فى وجودك لهذا الحب البرىء ، ولهذه العاطفة القوية . التى كتب لها الخلود ، فهى لا تعرف الزوال والانقراض ، إن البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ولم يسقها دم القلب — الحب — أصبحت مصنوعات سطحية من لون أو قرميد ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لاحياة فيها ولا روح ، إن المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحب ، ولا تقوم إلا على العاطفة والاخلاص ، الحب هو الذى يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفاق حنون للبشر ، فاذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصماء خفقت وعاشت ، وإذا تجردت منه القلوب الانسانية جمدت وماتت » .

ويقول ، فى عقيدة مؤمن . ودلال شاعر محب : « إن بينى وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً فى الايمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إن الانسان فى تكوينه وخلقه قبضة من طين لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامة وسموا ، فقد أشرق بنور ربه وحمل أمانة الله ، إن الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللوعة واللذة التى امتاز بها سجود الانسان ؟ ! »

وهنا يتذكر محمد اقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكر أنه هندي النجار ، وأنه من أحد بيوتات « البراهمة » ،(١) ويتذكر أنه أمام أثر إسلامى عربى صميم قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندى — الذى نشأ بعيدا عن مركز الاسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام — كيف غمر قلبه الحب والحنان ؛ وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبى الرحمة ، الذى يرجع إليه الفضل فى وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى فى جسمه ومشاعره التوحيد والايمان ! » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذى رفعه وشاده . وبالأمة الاسلامية العظيمة ، التى تعبد الله فى أمثال هـــذا البيت ، فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ، كثير الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائما على أعمدة كثيرة ، تشبه فى كثرتها وعلوها نخلا فى بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقة بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة فى السماء منزلا للملائكة ومهبطا للرحمة الالهية ، وهنا يقول فى إيمان وثقة : « إن المسلم حى خالد ، لا يزول ولا ينقرض لأنه يبلّغ فى

---

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مائتى سنة .

أذانه تلك الحقائق والرسالات التى جاء بها ابراهيم وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة ، التى حملت هذه الأمانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة ! »

وينطلق الشاعر العظيم فى وصف هذه الأمة التى يمثلها هذا المسجد ، الذى لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة فى العراق . ودانوب فى أوربا . والنيل فى مصر . إلا موجة صغيرة فى بحره الواسع ومحيطه الأعظم . إن له عصوراً فى التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكايات ومواقف فى البطولة لاتزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذى أمر العصر العتيق — العصر الجاهلى — بالرحيل ، وافتتح العصر الجديد . إنه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان الايمان والحنان ، لسانه لبن وعسل ، وسيفه علقم وحنظل ، يعيش فى ميدان الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعا بالتوحيد ، كلما اشتد به الخطب . وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله » .

ويقبل على المسجد ، يتحدث إليه ويناجيه ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سر المؤمن . ومثلته فى العالم . وصورت ذلك الاضطراب الذى يقضى فيه نهاره . والرقة التى

يمضى فيها ليله ، صورت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السامى ، ومسراته وأشواقه ، وتواضعه ودلاله » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموه وأخلاقه ، وسيرته فى العالم ، فيقول : إن يد المؤمن هى جارحة القدرة الالهية ، فهى غلابة ، فتاحة ، قاهرة ، ناصرة . أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبد تخلق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين . آماله ومطامعه قليلة ، وأهدافه ومطامحه رفيعة جليلة ، ألقى عليه الحب وكسى المهابة والجمال ، رقيق رفيق فى الحديث ، قوى نشيط فى الكفاح ، نزيه برىء فى السلم والحرب . إن إيمانه هو النقطة الدائرة ، التى يدور حولها العالم ، وكل ماعداه وهم وطلسم ومجاز . إنه الغاية التى يصل إليها العقل ولب لباب الإيمان والحب ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها » .

ويقبل مرة ثانية على المسجد ، فيخاطبه فى اجلال واكبار ، ويقول : « يامثابة هواة الفن ! ويامقصد رواد الجمال ! ويامجد الدين الاسلامى ! لقد سمت بك أرض الأندلس ، وتقدست فى أعين المسلمين . انك فريد فى الفن والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا فى قلب المؤمن . أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب « الخلق العظيم » وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم ، على أن حكومة أهل القلوب خدمة وزهادة ، وليست حكما ولا ملكاً . هؤلاء العرب المسلمون ، الذين كانوا مرفى الشرق والغرب ، وكانوا أصحاب

عقول حصيفة ، وبصيرة نافذة يوم كانت أوربا تتسكع فى الجهل المطبق ، والظلام الحالك ، والذين لاتزال فى الشعب الأسبانى ، بفضل دمهم العربى ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمال شرقى . فتكثر فيهم عيون المهى ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح فى الوادى تحمل نفحات اليمن ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب أسبانيا — الأندلس الاسلامى المغصوب — ، فيتغنى بأرضها التى تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أن أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوق إلى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الاسلامى ، فيقول : لقد شهدت ألمانيا ثورة الاصلاح الدينى ، التى عفَّت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة فى أوربا ، فجحدت أوروبا ، المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرر الفكر الأوربى ، وتحركت سفينته فى يسر وسهولة . وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة ، التى اضطربت لها أوروبا اضطرابا . وأصبح الشعب الطليانى — الرومى — شاباً فتياً بلذة التجديد (١) . هكذا الروح الاسلامية مضطربة قلقة ، تطلب انتفاضة جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنه سر من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان . والعالم يتمخض بحوادث

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسولينى فى الشعب الطليانى روح النخوة ، والطموح ، والاعتداد بالنفس ، والقومية الرومية .

جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهن بالمستقبل » . ويخاطب نهر قرطبة « الوادى الكبير » ، ويقول : إن على شاطئك ، أيها النهر العزيز ! رجلا يرى حلماً لذيذاً ، يرى فى مرآة المستقبل عصراً لا يزال فى طيات الغيب ؛ يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس . لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحت مافى صدرى من أفكار وأسرار ، لشق ذلك على أوروبا ، وفقدت رشدها وجن جنونها » .

ثم يعود مرة ثانية ، يشيد بفضل التجديد فى حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « كل حياة لاتجديد فيها ولا ثورة أشبه بالموت ، إن الصراع هو حياة روح الأمم . إن أمة تحاسب عملها فى كل زمان ، وسيف بتار فى يد القدر لا يقاومه شىء ولا يقف فى وجهه شىء(١) » .

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمة حكيمة مأثورة ، مبنية على تجارب واسعة ، ودراسات عميقة ، واستعراض واسع للأدب والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إن كل مأثرة وكل إنتاج ، لم تذب فيه حشاشة النفس ، ناقص وجدير بالفناء والزوال السريع ، وكل رنة أو نشيد

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية .

لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألم له النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له فى المجتمع وعالم الأفكار » .

وهذا هو سر الخلود والبقاء للآداب والأفكار والإنتاج ، وهذا سر تفاهة الأدب الجديد ، الذى يولد سريعاً ويموت سريعاً ، وهذا هو سر التأثير والخلود فى شعر اقبال وإنتاجه .

فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا ؟

في أرض فلسطين

تحركت السيارات التى كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامى المنعقد فى القدس عام (١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م) ودخلت فى الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس . ولم يزل الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان . فأثار ذلك الشاعرية فى الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذى جاء من أوروبا يمثل الهند الإسلامية فى المؤتمر الاسلامى ، وبدأ يتمتع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته — التى يحتفظ بها الشعراء — فى سبيل القلب ، فكل نظرة تضيع فى جمال الطبيعة ترجع إلى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم ، وإثارة قريحته . فقد غطت الجوّ سحائب ذات الألوان ، واكتست

جبال فلسطين بطيلسان جميل ، زاهى اللون ، وهب النسيم عليلا بليلا ، وهفت أوراق النخيل مصقولة مغسولة بأمطار الليل ، وأصبحت الرمال فى نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيران انطفأت قريباً ، وأثافى(١) منثورة هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ، ضربت فى هذا الصحراء بالأمس القريب ، تخبر بالقوافل التى أقامت ثم ظعنت .

وطاب المكان والزمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن يلقى عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته(٢) .

حرك هذا المنظر البديع فى هذا المكان الرفيع ، الذى أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحب الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الانسان أحب شىء إليه فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنى به . وقد حل « الأسلام » وحلت الأمة الاسلامية فى قلبه محل الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر « حبيبه » وتغنى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربى البليغ :

ولما نزلنا منزلا طله الندى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

(١) الأثافى : الحجارة التى توضع عليها القدور .

(٢) الوصف للمكان والمنظر لاقبال ، نقلناه إلى العربية فى لفظنا .

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أن ركب الحياة بطيء لا يسايره فى أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الاسلامى » جديد فتى ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنام وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم « القومية » و « الوطنية » ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الاسلامى والعربى ، أفليس العالم فى حاجة إلى ثورة ابراهيمية جديدة ، إلى كاسر أصنام ، يدخل فى هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟ .

وسرح طرفه فى العالم الاسلامى ، فوجد إفلاساً محزناً فى العقل والعاطفة . رأى العالم العربى قد ضعف فى إيمانه وعقيدته ، وفى لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمى قد فقد العمق والسعة فى التفكير ، ورأى أن النظام المادى ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ، ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن على فى حميته وفروسيته .

ورجا العالم الاسلامى أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربى ، ويفاجيء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز — معقل الاسلام وعرين الأسود — فما كان منه إسعاف وإنجاد ، ولم تتجدد معركة كربلاء ، على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الانسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامى إلى بطله الجديد .

وهنا شعر محمد اقبال أن السبب فى هذا التحول العظيم ، هو ضعف

العالم الاسلامى فى العاطفة والحب ؛ الذى هو مصـــدر الثورات والبطولات ؛ فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ؛ ويقول :

« لا بد أن يعيش العقل والعلم والقلب فى حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ؛ ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفة قوية ؛ وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ؛ فاذا تجرد الدين عن العاطفة ، والحب أصبح مجموعة من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذى صنع المعجزات ، هو الذى ظهر فى صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذى تجلى فى معركة بدر وحنين » .

وهنا يقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذى دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : « إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود . وأنت البغية المنشـــودة ، التى هام فى سبيلها الهائمون وحار فى الوصول اليها الباحثون » .

ثم يستعرض العالم الاسلامى — وقد عرف شرقه وغربه ، وعربيه وعجميه — فيحزنه قصر النظر ، وقلة الذوق فى رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمة وقلة البضاعة(١) فى رجال الدين . ويرى أن المراكز العلمية والدينية — بمعناها الواسع — محرومة من عمق الفكر

---

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما هم بصدده .

وسلامة الذوق ، والنشاط العقلى ، والطموح الذى كان سمة هذه المراكز التى تتزعم العالم الاسلامى ، وتقود الأجيال البشرية . ويقول : « إنى هائم فى شعرى وراء الشعلة التى ملأت العالم أمس نوراً وحرارة .

وقد قضيت حياتى فى البحث عن تلك الأمجاد التى مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا ، وغابوا فى غياهب الماضى . إن شعرى يوقظ العقول ، ويهز النفوس ويربى الآمال فى الصدور ولا عجب إذا كان شعرى يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه فى النفس كبيراً وعميقاً ؛ فقد سالت فى شعرى دموعى ودمائى ، وفاضت فيه مهجتى . ودعائى أن لا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد » .

ثم يقبل فى شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرة حقيرة أو قطرة صغيرة ، فى جنب هذه السعة التى لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرة فكانت شمسا بازغة ، وكيف تجلى بالجلال ، فكان فى الارض ملوك كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد . زهدوا فى متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله » ويقول : « ان الحنين اليك ، هو حادى الروح ورائد القلب ، وهو الذى يضفى على صلاتى ، وعبادتى حياة روحانية ، فإذا تجردت صلاتى من هذا الحنين ، لم أر أنها تقربنى اليك . لقد وجد عندك العقل والعاطفة ، ما يعوزهما وما يحتاجان اليه ، فأصبح العقل — بعد توفيقك — يغيب أحيانا ، ويهيم فى البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة

والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب » . ويناجي ربه ويقول : « ان الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيدا في دراساته العلمية ، الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطى الثمرات ، وليس كل من درس علم النخيل تمتع بالرطب . ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذى لم يزل ، ولا يزال قائما حاميا . ويذكر معركة قامت ، فى فجر التاريخ الاسلامى ، بين المادة والايمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الايمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفـاء ، ولكل معسكر (١) .

فلينظر العالم العربى إلى أى معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الايمان والاخلاص ، وإلى أى راية ينضوى ؟ إلى الراية الجاهلية التى قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمدية التى التف حولها أبو بكر وعمر .

---

(١) من « بال جبريل » ديوان شعر لإقبال . قصيدة « ذوق وشوق » .

في غـــزنين

سافر محمد إقبال ، على دعوة من ملك الأفغان الشهيد نادر شاه ، عام ١٩٣٣ م إلى أفغانستان ، ومر فى طريقه على غزنين عاصمة اسكندر الإسلام السلطان محمود الغزنوى ، وزار قبر الشاعر الحكيم السنائى الغزنوى(١) ، الذى يعتبره محمد إقبال أستاذاً له فى الشعر والحكمة ، وسلفاً بعد مولانا جلال الدين الرومى . وطاب له الوقت ، وفاضت قريحته بشعر إسلامى حكيم ، بث فيه أشواقه وآماله وآلامه ، ونظر فيه إلى العالم المعاصر بعين حكيم شاعر ، ومؤمن ثائر . وسجله تذكاراً لهذه الزيارة الممتعة التاريخية .

يشكو الشاعر العظيم ، فى مستهل هذه القصيدة ، رفيق هذا الكون ،

---

(١) هو من كبار شعراء العهد الغزنوى ، نشأ كشاعر غزل ومديح ، ولقب بملك الشعراء فى البلاط ثم جذبه التوفيق الإلهى . يعرض عن الدنيا ومدائح الملوك • وعكف على الشعر الوجدانى ، ونظم الحقائق والمعارف الإلهية ، توفى حوالى سنة ٥٢٥ هـ .

ويذكر أنه مع سعته التي يوصف بها لا يسع لوعته وطموحه ، ويلوم من يرى أن هذه الدنيا — برحابها الواسعة ، وصحاريها المترامية ، ومتعتها الفاتنة — لا تسع فرداً واحداً رزقه الله علو الهمة ، وكبر النفس ، وحرارة الحب ، ويتهمه بسوء التقدير ، وضيق التفكير . ويقول في صراحة وثقة : « إن من عرف نفسه وقيمته تحرر من هذا العالم المادي ، وتمرد عليه ، وذلك سر التوحيد الذي لا يزال الناس في غفلة عنه . وإن من تفتحت بصيرته ، تجلى له الجمال الإلهي ، فرآه في هذا الكون » .

ويذكر هنا محمد إقبال أنه لا صراع بين العلم والمعرفة والحب ، وإنما هو من تصوير المنتسبين إلى العلم ، ومن ضعف تفكيرهم ، فقد رأوا في من ملكه الحب ، المنافس للعلم والدين ، وقسوا أو أسرعوا في الحكم عليه ، ويقول : « إن الاستغناء عن المادة وأصحابها ، والحكومة ورجالها ، هو الحصن الحصين الذي يعتصم به أصحاب النفوس الكبيرة الزكية ، فلا سبيل إليهم ، ولا سلطان عليهم للملوك والأغنياء » ثم يقول في دلال واعتداد : « لا تحاول أيها الملك الرفيع أن تقلدني في لوعتي وسكري ، فتلك نعمة خص الله بها بني آدم ، وحسبك الذكر والتسبيح والطواف ، الذي جبل الله عليه الملائكة الكرام » .

وهنا يقبل الشاعر إلى العالم ، الذي يعيش فيه ، فينتقد الشرق والغرب ، ويقول : « لقد عرفتهما وعشت فيهما زماناً ولا ينبئك مثل

خبير » . ثم يقص ما يعانيان من أزمة ، وما يقاسيان من علة ، فيصورهما تصويراً صادقاً دقيقاً لا يستطيعه إلا من اختبر الشرق والغرب ، ويقول : « أما الشرق فقد توفر فيه الاستعداد ، ولكن يعوزه الموجه والقيادة الرشيدة ، وأما الغرب فقد أتخم بالقوة والوسائل ، ولكن حرم لذة الإيمان ، وبرد اليقين » . ويتذكر العالم الإسلامى ، فيقول : « لقد انقرض منه أولئك العماليق الذين كانوا يتحدون الملوك والأباطرة بأنفتهم ، وكان فى فقرهم وزهادتهم حتف للاستبداد » .

ويتذكر العالم العربى فتحزنه الأوضاع الفاسدة هناك(١) ، يحزنه عبث الملوك العرب ، وأمرائهم ، وزعمائهم ببلادهم العزيزة ، والمقدسات الإسلاميه ، ووقوعهم فى شباك الأجانب مرة بعد مرة ، وانهماكهم فى لذاتهم وشهواتهم ، فتصدر منه كلمة قاسية لاذعة ، لم يصدرها إلا الإيمان العميق ، والحمية الإسلامية ، فيقول : « إن هؤلاء الشيوخ والأمراء لا يستغرب منهم أن يبيعوا جبة أبى ذر ، وكساء أويس القرنى ، ورداء فاطمة الزهراء(٢) ، وأعز المقدسات فى كأس يحتسونها ، ولذة ينتهبونها » . ويقول : « إن نفوذ الأجانب فى جزيرة العرب والأقطار العربية ، وسيطرتهم السياسية على كثير من أجزائها ، حقيقة مؤلمة ، يفزع لها كل مسلم ، ويعتبرها كزلزلة

---

(١) لا ينسى القارىء أن هذه القصيدة قيلت فى عام ١٩٣٣ م .

(٢) كنايات عن المقدسات والأشياء الحبيبة إلى نفوس المسلمين .

الساعة ورجفة القيامة ، ويتمثل بشطر بيت للحكيم السنائى — الذى وقف إقبال على قبره ونظم هذه القصيدة — قاله عندما ملك التتار العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وهددوا الحرمين الشريفين : « لقد ملك التتار مركز الإسلام والعرب — الذين كانت لهم الوصاية على العالم الاسلامى ، وهم مسئولون عنه — فى نوم عميق لذيذ » .

وينتقد الشاعر الحضارة العصرية ، التى كان مصدرها أوروبا الثائرة الحائرة فيقول ، فى تحليل عالم فيلسوف : إن الحياة الانسانية لا تستقيم ، ولا تتزن إلا إذا جمعت بين النفى والاثبات ، بين الجحود بالزائف الباطل ، وبين الايمان بالحق الثابت ، وتلك هى الكلمة الجامعة التى أصبحت شعار الاسلام ، وعقيدته لا إله إلا الله .

فالشطر الأول — الذى هو النفى — إنكار لجميع الآلهة الباطلة ، من أصنام ، ومادة ، وسلطان ، والشطر الثانى - الذى هو الإثبات - إقرار للحق الذى لا حق غيره . وقد قطعت أوروبا الشوط الأول بشجاعة وقوة ، وأنكرت الوسائط بين الله وبين العبد ، وثارت على الاحتكار الدينى ، الذى مثلته الكنيسة اللاتينية ، فى القرون الوسطى ، وألحت عليه رجال الدين والكهنوت ، وثارت كذلك على الحكومات الجائرة المستبدة ، فأحسنت ، ولكن خذلها التوفيق فى قطع الشوط الثانى الأخير ، شوط الإثبات ، والتقرير ، والإيمان الجازم ، والإنسان لا يعيش على النفى فقط ، ولا يتكون المجتمع ، ولا تقوم الحضارة

على النقى وحده ، فلذلك بقيت أوروبا — التى أخضعت العالم لعلمها ، وتنظيمها ، وسخرت الطبيعة لمقاصدها ومصالحها — حائرة مضطربة ، تائهة لا تملك الإيمان ، ولا تملك العاطفة ، ولا تملك الغايات الصالحة ، وأصبحت مهددة فى الزمن الأخير بالانهيار أو الانتحار » . وهكذا لخص محمد إقبال تاريخ أوروبا المدنى والفكرى الطويل ، فى عبارة وجيزة ، ومقطوعة شعرية ، هى عصارة دراسة طويلة وتفكير عميق .

والشاعر غير متشائم فى نظرته وحكمه ، وهو غير يائس من مستقبل الشرق ، فيقول : « إن الشرق زاخر بالقوة والإنتاج وتبدو من هذا المحيط المادى ، موجة قوية تهز العالم وتزلزل أوكار الفساد والاستبداد » ويرجع الشاعر فينعى على الاستعمار الذى يرزح تحته الشرق الاسلامى ، والذى أثر فى تفكيره ومشاعره ، ففقد الشعور بالجمال ، وأصبح لا يوثق بآرائه واتجاهاته ، ويقول : « إن المحكوم الرقيق لا يوثق بأحكامه ، ولا يعتمد على استحسانه واستهجانه ، وإنما الميزان هو الرجل الحر والشعب الحر ، الذى يعيش حراً ، كريماً ، مستقلا بتفكيره وميوله ، فإن الأحرار ، هم وحدهم ، أصحاب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ، وإن رجل الساعة هو ، الذى شق بهمته الطريق إلى المستقبل ، ولم يقتنع بالحاضر » .

ويرجع إلى تأثير الثقافة الاوروبية فى عقول الشباب الإسلامى

— ومن أدرى به ، فقد نشأ فى أحضانها — ، فيقول : « لقد نجح المربى الغربى ، الذى برع وفاق فى صناعة الزجاج ، فى مهمته ، حتى استطاع أن يضعف الأمم التى عرفت بالنخوة والشكيمة والأنفة ، فأصبحت شعوباً رخوة ناعمة . وأثر فى الصخور والحجارة حتى أصبحت تسيل رقة ، وفقدت صلابتها واستقامتها(١) ، وبالعكس قد ملكتُ الاكسير ، الذى يحول الزجاج إلى حجارة صماء ، لا تؤثر فيها السيول الجارفة والمعاول الهدامة . لقد استطعت أن أقاوم الفراعنة ، الذين مازالوا منى بالمرصاد ، بفضل اليد البيضاء(٢) ، التى أخفيها فى أكمامى ، ولا عجب ، فإن الشرارة التى خلقت لتحرق غابة بأسرها ، لا يتغلب عليها الحشيش والهشيم .

« إن الحب يبعث فى الرجل الاعتداد بالنفس ، والاحتفاظ بالكرامة ، ويمنع من الوقوف على أبواب الملوك ، والخضوع للمادة والسلطان » .

وهنا تأخذه الهزة ، ويملكه حب النبى ﷺ ، والإعجاب بشخصيته المعجزة ، ورسالته الخالدة — وهو الموضوع الذى لا يملك إقبال أمامه نفسه — فيقول : « لا عجب إذا انقادت لى النجوم ، وخضعت لى الأفلاك والكواكب ، فقد ربطت نفسى بركاب سيد

(١) يكنى به إقبال عن تأثير الحضارة الأوروبية فى أخلاق الشرقيين وما يتصفون به بعد الثقافة الأوروبية ، من الرقة والنعومة والفسولة .

(٢) كناية عن الإيمان والاستغناء عن المادة .

عظيم ، لا يأفل نجمه ، ولا يعثر جده ، ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل ، وإمام الكل محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى وطأت قدمه الحصباء فأصبحت إثمداً يكتحل به السعداء » .

وهنا يقف الشاعر ويقول : « يمنعنى الحياء من الشاعر الحكيم — السنائى الغزنوى — والأدب معه أن استرسل فى الكلام ، وأطيل الموضوع ، وإلا أمامى مجال واسع من المعانى ، والبحر زاخر بالدرر واللآلى » .

دعــاء طــارق

نزل طارق بن زياد — القائد الشاب — بجيشه العربى المسلم على أرض أسبانيا ، مدخل أوروبا ، وأمر بإحراق السفن التى حملت الجيش الإسلامى لتنقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر(١) » ... فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

.. صف طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافىء الجيش الأسبانى فى العدة والعدد ، ووصول الميرة والمدد ؛ فإن العدو فى مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامى غريب منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع فى ميرة ولا مدد ، إلا ما ينتزعه من أيدى عدوه انتزاعاً ، ويتغلب عليه . ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمة السباع والنسور .

---

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

كل ذلك أثار فى طارق التفكير والاهتمام ، وفكر ، فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوة لاتهزم ، وإرادة لا تغلب ، إنها القوة الالهية ، وأنها الارادة الربانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه . أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام . وقد قال الله : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجى ربه ويطلب نصره ، وكان فى ذلك مقلدا للرسول الأعظم ﷺ — قائد الكتيبة المؤمنة الأولى — إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل فى العريش ، ونصب جبهته يبكى ، ويقول « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد » . فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذى لا يدعو به قادة الجيوش ولايخطر منهم على بال : وقد سبكه محمد اقبال فى قالب شعره ، فزاد فى تأثيره وسحره .

« قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهادا فى سبيلك وابتغاء مرضاتك . رجال غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحا وعلو همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك ، وينفذون فيها

أمرك ، لا يعلوهم ، غيرك أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوى لصولتهم الجبال . لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب . ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التى هى وطن المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد . لا يفكرون فى الغنائم ولا فى فتح البلاد ، ولا فى بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إن العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردى فى الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ، ونفوسهم بسخاء وشجاعة . إن العالم بحاجة إلى دم عربى زكى ، فلا يُروى غليله ، ولا يشفى عليله إلا الدم العربى الطاهر . ها أن الأزهار والورود فى الغابة فى انتظار أن تسقى بهذا الدم القانى ، فترفل فى حلته . وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا فى هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظار شاق ، طال أمده .

لقد أكرمت يارب ! رعاة الإبل وسكان الوبر — العرب — بنعم فريدة ، لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ، هو : أذان الصبح . فقد أفلست الأمم فى العلم الصحيح ، والإيمان القوى ، والذوق الرفيع والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلة من الناس ، أما العرب فقد فاجأوا العالم

بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودوى آذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك . لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة ، وقد وجدتها من جديد فى قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان . إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحا جديداً ، وعيشاً جديداً . أعد يارب ! إلى هذه الأمة ، المؤمنة . الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التى تجلت فى دعاء نوح . فقال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) . حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد . واخلق فيها المطامح البعيدة والعزائم القوية الشديدة ، واقذف فى قلوب الناس رعبها وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق ــ القائد المؤمن المخلص ــ وانتصر الجيش الإسلامى على عدوه . الذى كان يفوقه مراراً فى العدد والعُدد . وأصبحت اسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامى الغربى . وقامت دولة المسلمين فى ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل . إلا بفقدهم الروح التى تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التى جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم فى الإيمان الذى امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحى البلاد ، بانغماسهم فى الشهوات والحروب الداخلية . « سنة الله فى الذين خلوا من قبل » . « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

---

(١) من « بال جبريل » ديوانه .

حديث الربيع

خيم سلطان الربيع ، وانتشرت جنوده فى رحاب الصحراء ، وأودية الجبال ، وقامت دولة الزهور والرياحين ، ودبت الحياة إلى الصخرات والحجارة حتى كادت تنطق وتنطلق . وغشيت العالم سحابة من المرح والسرور ، حتى أبت الطيور أن تستقر فى أوكارها مرحاً . وانطلقت عيون الجبال تميس وتنساب كالحيات فى الصعيد ، تدب أحياناً ، وتجرى برفق وهدوء ، وتتدفق أخرى وتجرى بقوة وسرعة ، وإذا حبسها حابس ، فلقت الصخور والهضبات ، وشقت طريقها إلى الأمام ، وإنها بخريرها الدائم تغنى نشيد الحياة وتردد حقائقها(١) .

يصغى محمد إقبال — الشاعر الحكيم — إلى هذا النشيد ، ويرى كيف تتلون هذه العين التى تدفقت من بعض الجبال ، وكيف تنعطف

(١) مأخوذة من نفس قصيدة إقبال .

وتتعرج ، وتتداول الرفق والقوة ، وهى مع ذلك كله لا تفقد حقيقتها حقيقتها وحياتها ، متسلسلة فى الفيضان ، مستمرة فى الجريان . ويرى فيها صـورة للحياة ، التى تجرى باستمرار ، وتظهر فى أدوار وأطوار ، وتلتزم الحركة والتطور ، فما لها من قرار . ويستلهم الشاعر الحكيم ، من مناظر الربيع التى فتقت قريحته ، وأهاجت شاعريته ، ومن الدروس التى يلقيها نهر الحياة الفاض ، معانى حكيمة ، يهديها إلى الجيل الإسلامى الجديد ، الذى هو مناط آماله ، ويهيئه لاستقبال العصر الجديد الذى ظهرت تباشيره .

ويقول : « لقد تغير العصر وأوضاعه ، وتكشفت أسرار أوروبا ، وما كانت تضمره ، وتبيته للشرق ، حتى أصبح فلاسفتها ودهاتها وزعماؤها فى حيرة من أمرهم . لقد أفلست السياســـة الأوروبية ، وأخفقت أساليبها القديمة ، وأصبح العالم يبغض الامارة والملوكية ، وثار المجتمع على الأفراد والسلاطين . لقد انتهى دور الرأسمالية والثراء الفاحش ، وانتهت هذه المسرحية التى مثلها الملوك وأبطال ألف ليلة . لقد تخطت اليقظة العالمية ، إلى شعوب معروفة بالكسل ، والسبات العميق ، وتدفقت عيون جبال همالايا ، وتهيأت جبال سينا ، وفاران لإشراق جديد » .

ويقبل كعادته إلى أمته الاسلامية الحبيبة ، ويستعرض العالم الاسلامى ، فيقول : « إن المسلم ، وإن كان لا يزال متحمسا فى

التوحيد ، فقلبه لم يتجرد بعد من نفوذ الوثنية وشعائرها . إن الحضارة والتصوف والديانة وعلم التوحيد ، لايزال كل ذلك خاضعا للنفوذ العجمى ، لقد طغت الخرافات على الحقيقة ، وتاهت الأمة فى الأخبار . إن الخطيب(١) يسحر المجتمع بكلامه وخطاباته ، ولكنه جاف قليل الحظ من الحنان ، ولذة الشوق ، إن كلامه مؤسس على المنطق والقواعد ومشحون بالمفردات الغريبة ، والتراكيب البديعة ، ولكنه لا يأسر القلوب ، ولا ينفذ إلى أعماقها . أما « الصوفى » الذى تجرد لخدمة الحق والحب لخلق الله ، وكان يلتهب غيرة وحمية للدين ، فقد ابتلعته الفلسفة العجمية . و « الشكليات الصوفية » .(٢) لقد انطفأت شعلة الحب والحنان فى المسلم ، فأصبح ركاماً من رماد ، لا شعلة فيه ولا حياة » .

وهنالك يدعو محمد اقبال ربه مخلصاً أن يعيد إلى هذه الأمة الحياة ، ويعيد إليها عهدها الاسلامى الزاهر الأول ، ويدعو أن يلهب فى نفسه العاطفة . ويشعل شعلة الحب فيستمد منها قوة ، وخفة روح وسمو لا يحظى به إلا « المحبون المؤمنون » . فيطير بجناح الحب ويصل إلى ما لا يصل إليه الثقلاء الماديون ويدعو أن يخلق الله فى هذه الأمة الهامدة الخامدة قلب على ولوعة أبى بكر ــ رضى الله عنهما ــ وأن يبعث فى صدورها الآمال التى ماتت .

---

(١) يعنى به رجال الدين الذين يخطبون ويؤلفون فى المقاصد الدينية ويسطون النا[illegible] .

(٢) إشارة إلى تطور التصوف الاسلامى ، وانحطاطه فى العصر الأخير .

وهنالك تأخذ الشاعر أريحية الشعر والايمان ، فيقول : « حيا الله نجوم سماواتك ، التى تلمع ليلا ، وعباد أرضك - الذين يحيون الليالى عبادة وتلاوة ، أحى قلوب الشباب الاسلامى ، واجعلها خفاقة حساسة متوجعة ، وارزقهم يارب ! حبى ، وعاطفتى ، وفراستى وحكمتى .

لقد وقعت سفينتى فى لجة ، وأحيط بها من كل جانب ، فأخرجها من هذه اللجة ، وقد وقفت ، فاجعلها سائرة جارية ، تصارع الأمواج واشرح لى كيف تموت الحياة ، وتفقد حيويتها ، فإنه لا يخفى عليك شىء من هذا الكون .

ليس عندى يارب إلا هذه الآلام التى أقاسيها ، والتى حرمت على النوم ، وسلطت على الأرق ، هذه المطامع البعيدة ، والآمال الواسعة التى أربيها ، هذه الأنات التى أرسلها فى ظلام الليل ، وهذه الساعات الحلوة ، التى أخلو فيها ، وأناجيك ، وهذه المجالس التى أبث فيها أشواقى ، وأستزف فيها آماقى . إن فطرتى التى فطرتنى عليها ، مرآة ينعكس فيها اتجاهات العصر ، ومرتع يرتع فيه غزلان الأفكار والخواطر(١) وإن قلبى ساحة ، يتجدد فيها معارك وحروب بين جيوش الظن والتخمين . وبين ثبات العقيدة واليقين(٢) . هذه هى

---

(١) يشير إلى ما يسنح له من أفكار جديدة ونظريات .

(٢) يشير إلى الصراع النفسى بين الفلسفة والدين والعاطفة الذى لم يزل الشاعر الحكيم يعالجه فى حياته .

ثروتى . التى أعتز بها فى فقرى ، وأدعوك يارب ! أن تقسمها فى الشباب الاسلامى ، وتملكهم إياها ، فصادف محلها ، وتصل إلى من هو أحق بها ، وأهلها » .

وبعد أن يشرح فلسفة الحياة ، ووحدتها فى الكثرة ، وتطورها وظهورها فى مظاهر شتى ، وحرصها على الحركة والتغير ، وفرارها من الهدوء والجمود ، وقوتها وسرعتها ، كل ذلك فى عمق ودقة ، وهى قطعة فلسفية أدبية ، تستحق الدراسة والعناية من تلاميذ الفلسفة وعلمائها ورواد الأدب يهيب بالشباب الاسلامى ويقول له ، وهو يعرف اندفاعه إلى المادة والشهوات ، وغرامه الشديد بالوظائف والمرتبات :

« إن الرزق الذى يفقد الأبى الكريم كرامته ، ويرزأه فى حريته وشرفه سم زعاف ، إن القوت المقبول ؛ هو الذى يظل معه الرجل موفور الكرامة ، مرفوع الهامة . أزهد فى أبهة السلاطين ، واعرف نفسك ، واحتفظ بقيمتها وكرامتها ، وإن السجدة التى هى جديرة بالاهتمام هى السجدة التى تحرم عليك كل سجدة لغير الله » .

ثم يحثه على مغامرات جديدة ، وفتوح جديدة ، وتقدم دائم ، وطموح قائم ، حتى تنكشف له عوالم جديدة ، لم يحلم بها علماء الطبيعة ولم تحدث عنها العلوم الكونية .

« إن هذا الكون ، الذى يتركب من لون وصوت ، والذى هو

خاضع لناموس الموت ، والذى تسرح فيه العين وتتمتع فيه الأذن ، وليست الحياة فيه — عند أكثر الناس — إلا الأكل والشرب ، ليس هذا الكون الفسيح الجميل ، هو المرحلة الأولى لمن عرف قيمته ، إنه ليس وكرك الذى تستريح فيه ، والغاية التى تنتهى إليها . ليست هذه الأرض ، التى مادتها التراب ، مصدر روحك المتوقدة الوثابة ، وعاطفتك الملتهبة ، أنت مادة الكون ، وليس الكون مادتك . كن فى تقدم دائم ، ورحلة دائمة ، وحطم هذا الجبل الأصم ، الذى يعترض فى طريقك ، وتمرد على هذا الزمان والمكان ، وتحرر من قيودهما ، وانطلق من حدودهما ، فان المؤمن إذا عرف قيمة نفسه اقتنص هذا العالم ، واقتنص هذه الأرض والسماء فى بعض ما يقتنص » .

« إن هنالك عوالم وأكوانا ، لم تقع عليها عين بعد ، فان ضمير الوجود لم يفرغ جعبته ، ولا يزال يأتى بجديد . وإن هذه العوالم متشوقة لهجومك ، وغارتك ، وزحفك ، متشوقة لابكار أفكارك وبدائع أعمالك . إن هذا العالم يدور دورته ، لتنكشف عليك نفسك وحقيقتك . أنت فاتح هذا العالم ، الذى يحتوى على خير وشر ، ويعجز البيان عن وصفك ، ويعجز الملائكة عن مرافقتك وعن غاياتك » .

نياحة أبي جهل

زارت روح عمرو بن هشام — زعيم الجاهلية والنخوة العربية — مكة وقد أصبحت بلد الاسلام والتوحيد . وطهر بيت الله للطائفين والقائمين والركع السجود وحرمت عبادة الأصنام، و الأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة(١) وقام المؤذن على شرفات الحرم ، ينادى ، بأعلى صوته ، صوته ، خمس مرات « أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله » .

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، وأصبح الناس يعتقدون أنهم من آدم ، وآدم من تراب ، فلا فضل لعجمى على عربى ، إلا بالتقوى . وسمع الناس يتلون : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من

---

(١) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها ، كانت قريش تعظمها . راجع ابن هشام وابن الكلبي .

ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وأصغى إلى الناس ، فى غدوهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلد أو نسب ، ووطن أوشعب . وطاف فى الناس ، فلم ير أحداً يعير أحداً بأمه ، أو سواده . أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته أو قرشيته . وغشى مجالس الناس . فلم يسمع مفاضلة بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بنى عبد مناف وبنى عبد الدار ، وبين بنى هاشم وبنى عبد شمس ، ولا مساجلة فى مآثر الجاهلية وأيام العرب . ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبد أسود ، قد فاق الناس فى علمه وفقهه ، ويلتفون حوله ، ويصدرون عن رأيه .

ودقق فى حديث الناس وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم وسلوكهم وعقيدتهم ، فلم ير عرفا جاهليا . أو نزعة عربية ، أو نعرة قومية ، يتعلق بها سيد بنى مخزوم ، ويقر عيناً . ورأى أن الحياة القديمة ، قد نسخت وأبطلت ، وولد مجتمع جديد ، قام على أساس من العقيدة والخلق والفضيلة والتقوى . وتغيرت الموازين والقيم ، وتغيرت عقول الناس ونفوسهم . وسمع ينشد فى حزن واستعجاب :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم

ولا الدار بالدار التى كنت أعرف

لقد أشكلت الأمور على سيد بنى مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو

ابن البلد ، وسيد من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذى كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحن فيه ضعفاء المسلمين ، لأنكر مكة ، وأنكر الوادى ، ورأى أنه قد ضل الطريق .

لقد كان يرى فى الدين « الجديد » الذى جاء به محمد ﷺ ، الخطر والضرر على الدين الذى قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهلى الذى يقوم على النسب ، والوطن ، وتفضيل الدم والعرق ، ويرى العالم كله فى حدود « المملكة القرشية » التى قامت فى مكة ، ولا يعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كله فى العرب ، فغيرهم عجم وعلوج ، لا يستحقون مدحا ولا يستحقون رحمة ، ولا يستحقون عدلا . لقد كان يرى كل ذلك ، ويتوقعه . وكان من أشد الناس حماسة فى الدفاع عن الجاهلية ، وأصدق الناس فراسة فى معرفة غايات الاسلام ، ولكنه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أن الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ . وأن الاسلام يؤثر فى الناس هذا التأثير ، وأن الجاهلية تطرد من عاصمتها ، ومهدها هذا الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهلية فى أبى جهل ، وثارت روحه ورؤى متعلقا بأستار الكعبة يستغيث على محمد ﷺ ، وينوح ، ويقول :

« إن قلوبنا — معشر الجاهليين — قروح وجروح ، تسيل دماً ،

مما صنع محمد ، فقد أطفأ نور الكعبة ، وحط من مكانتها وقدرها .
لقد نعى قيصر وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين ، ونادى بأعلى صوته ، « إن الحكم إلا لله » و « إنَّ الأرضَ لله يُورِثها مَنْ يَشاءُ » ، واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به ، وبدينه الجديد . ساحر يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفر أعظم من قوله « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التى آمن بها الناس ، وعبدوها فى جميع الأعصار والأمصار ؟ ! إنه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللات ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ؛ فليت العالم ينتقم منه ، ويأخـــذ ثأر الآلهة .
يا عجباً ! لقد جرّد القلوب عن معبود مشهود ، يُرى ويُلمس(١) ، وربطها بمعبود غير مشهود ، لا يرى ولا يلمس ، حتى كان هذا الايمان بالغيب أقوى ، وأعمق من الايمان بالمشهود الموجود . هل لهذا الايمان أساس ؟ وهل لما لا يرى وجود ؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجودٌ لغائب ؟ هل يجد الانسان لذة وحلاوة فى ركوع وسجود أمام غائب ؟ .

إن دينه حتف للوطنية والقومية ، إنه من قريش ، ولكنه لا يفضل حراً على عبد ، وغنيا على فقير ، وعربياً على عجمى ، يجلس مع مولاه على مائدة واحدة ، ويأكل معه . أسفاً إنه لم يعرف قدر العرب الأحرار . وأكرم العلوج ، والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار

(١) يعنى به الأصنام من الحجارة وغيرها .

البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم باللئيم ، والجميل بالدميم ، وذل العرب ، وذل بنو قصى .

إننا لا نشك فى أن هذه المؤاخاة ، التى يحث عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجمى . وقد تحقق لدينا أن سلمان مزدكى ، وأن ابن عبد الله خُدع به ، وجر البلاء والشقاء على الأمة العربية . لقد جهل هذا الفتى الهاشمى قيمته ، وشرفه ، لقد أعمته هذه الصلاة التى يصليها ، هل لعجمى أصل عدنانى ، وهل لأعجمى نطقٌ عربى ، ولهجة مضرية؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام ، الذى يسميه محمد وحياً ، بكلامكم البليغ الساحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ، ولماذا لا تقوم يا هبُل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصباة . أغر عليهم ، وعكر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحا ، صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجاز نخل خاوية . يامناة ! ويا أيها اللات ! بالله ! لا ترحلا من ديارنا ؛ وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بد من الرحيل ، فلا تعجلا . وامهلانا أياما نتمتع بكما »(١)

* * *

(١) « جاويد نامة » لشاعر الاسلام محمد اقبال .

عودة الجاهلية

مر شاعر الإسلام — فى بعض زياراته الروحية وسياحاته الفكرية — بواد، اجتمعت فيه الآلهة القديمة، التى عبدتها أمم الجاهلية، ونحتت أصنامها وتماثيلها؛ وبنت عليها هياكل ومعابد، وعكف عليها السدنة والكهان، وتغنى بها الشعراء والأدباء. وكان يجمع الآلهة القديمة من شعوب مختلفة، وبلاد مختلفة، وعصور مختلفة، فهذا إله المصريين القدماء، وهذا رب التبابعة، والأذواء من اليمن، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية. وأولئك آلهة وادى الفرات، وهذا إله الوصل، وذلك رب الفراق؛ وهذا من سلالة الشمس، وذلك ختن القمر، وهذا زوج المشتري.

ثم إنهم أشكال وألوان، فهذا قد سل السيف بيده، وهذا تقلد حية ولواها حول عنقه، وكلهم وجلون مشفقون من الوحى المحمدي، الذى أحدث الثورة الكبرى عليهم، وأفسد عليهم العيش، وولد العالم

الجديد القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ، وكلهم ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارة مفاجئة سر بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحب بالإنسان القادم وأخبر زملاءه به : أبشروا يا إخوانى ! فإن إنساناً فر من الله ، وثار على الأديان السماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضى ، ليتوسع فى العلم والنظر ، وجاء يتمتع بالآثار العتيقة ، ويتحدث عن مجدنا ، إنها بارقة أمل لاحت بعد مدة ، ونفحة هبت من أرض حكمناها طويلا ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعل — إله الفينيقيين والكنعانيين القديم — أول من اهتز لهذه الزيارة ، فأنشأ يغنى فى طرب ومرح ويقول : « إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد ، التى يدين بها الإنسان ، إلا خواطر تسنح له ثم تغيب كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنه لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود » .

حيا الله الأفرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، والذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائى الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ، التى أتاحها لنا الدعاة الغربيون ، ألا ترون كيف نسى آل إبراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذى أخذ عليهم ، ونسوا لذته .

إنهم صحبوا الغربيين مدة من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ، وضيعوا الدين الذى نزل به الروح الأمين ، والذى بعث فيهم الإيمان واليقين .

إن الرجل المؤمن الحر الذى لم يكن يعرف الحدود والجهات ، ولا يعبد غير الإله الواحد الذى خلق السموات والأرض ، أصبح يؤمن بالوطن ويقدسه ، ويعبده ، ويقاتل فى سبيله ، ويكفر بالله ، ويهجره ، ويتناساه .

لقد خضع المسلمون لنفوذ الغربيين ومجدهم ، وأصبح شيوخهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلدون شعارهم ، ويقتفون آثارهم ، فلنستبشر ولننتهز هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشباب ، وحق لنا أن نطرب ، فقد انهزم الدين ، وانتصرت الوطنية والجنسية . إن المصباح الذى أناره محمد ، تألب عليه مائة « أبى لهب » يطفئونه . إننا لا نزال نسمع صوت « لا إله إلا الله » ولكنه صوت يصدر عن الشفتين ولا يصدر عن القلب ، وكل ما غاب عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحر الغرب دولة إله الشر والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدين الإلهى مهدداً ، فطوبى لنا ولإخواننا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا فى الخلوات والمغارات .

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرف المطلق ، والحرية الكاملة

فى حياتهم ، لم نثقلهم بعبادة وطاعة ، وإنما طلبنا منهم ركعة لا سجود فيها . وقد أثرنا فيهم العاطفة الدينية بالأناشيد والأغانى ، فلم تكن صلاتهم إلا مكاءاً وتصدية ، ونغمة وأغنية ، وأى لذة فى صلاة لا غناء فيها ولا موسيقى ؟ !

إن الناس لابد يفضلون عبادة طاغوت مشهود ، على عبادة إله غائب ، ورب لا يرى بالأبصار »(١) .

(١) من ديوان « جاويد نامة » .

ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومربيه الروحي والفكري — الشيخ جلال الدين الرومي — في سياحة روحية فكرية ، ومر في جولته — الخيالية — بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصيات ماضية ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر والرجالات ، وتحدث معهم في مسائل كثيرة[1] .

ومر في رحلته بمنزل بكر ، لم يطأه آدمي بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدنيا بسهولها وجبالها ، وميادينها وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلة من المدنية والصناعة الإنسانية . وأعجب الشاعر جمال الطبيعة ورقة الهواء وخرير الماء في هدوء الصحراء .

وأقبل إلى شيخه الرومي ، فقال وقد قرع أذنه صوت عذب

---

(١) وفي ديوانه « جاويد نامة » قصة هذه الرحلة .

رقيق : مالى أسمع الاذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهم ، أم حالم ؟ .

قال الرومى : إنه منزل الصلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسب قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدم يوماً أو يومين ، لما هبط من الجنة . قد شهد هذا المكان زفراته وأناته فى السحر ، وبلت دموعه التراب . يزوره أصحاب المقامات الرفيعة كفضيل وأبى سعيد ، والعارفون الكبار كجنيد وأبى يزيد ، فلنقم ولنسرع لندرك الصلاة فى هذه البقعة المباركة ، وننال لذة الروح ونعمة الخشوع التى حرمناها فى العالم المادى .

ونهضا من مكانهما مسرعين فوجدا رجلان يصليان ، أحدهما أفغانى والآخر من الأتراك . ونظر فيهما فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغانى يصلى خلفه الأمير سعيد حليم باشا فقال الرومى : إن الشرق لم ينجب فى العصر الأخير أفضل منهما ، وقد حلا كثيراً من عقدى وألغازى ، أما الإمام السيد جمال الدين ، فقد نفخ فى الشرق الناعس روح النشاط ، ودبت بدعوته الثائرة الحياة فى الأموات والجمادات ؛ وأما الزعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدامى ، والفكر المحلق السامى ، والروح القلقة ، والعقل الكبير المستنير . إن ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوء المكان والزمان ، وشخصية الإمام ، وجمال القرآن ، جواً خاشعاً رهيباً ، رق

فيه القلب وفاضت فيه العين ، وكانت قراءة لو سمعها ابراهيم الخليل لأعجب بها ، ولو سمعها جبرائيل لأثنى عليها ، وكانت قراءة تقلق النفوس وتذيب القلوب ، وتعلو بها صيحة التكبير والتهليل فى القبور ، وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتتضح بها معانى أم الكتاب .

ونادى محمد إقبال يحكى قصته ، قال : « وقمت بعد الصلاة ، وقبلت يده فى أدب ومحبة ، وقد قدمنى أستاذنا الرومى إلى السيد ، وقال : إنه جوال جواب فى الآفاق ، لايستقر فى مكان ، ويحمل فى قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ولم يخضع لأحد ، فيعيش حراً طليقاً » .

وأقبل على السيد جمال الدين ، فقال : حدثنى ياعزيزى ! عن العالم الذى عشت فيه زمنا ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ، وينظرون بنور الله .

قلت : ياسيدى ! لقد رأيت فى ضمير الأمة التى خلقت لتسخير العالم معركة حامية ، وصراعا داميا بين الدين والوطن . لقد ضعف الايمان فى قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الأمل من سيطرة الدين وسيادته ، فلجأت إلى الوطنية والقومية . أصبح الأتراك والايرانيون سكارى بصهباء أوربا ونشوتها ، وأصبحوا فريسة كيدها ودهائها ، أصبح الشرق خرابا بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشيوعية ببهجة الدين وبهاء الملة .

سمع الأفغانى كل ذلك فى صبر وأناة ، وفى تألم وحزن ، ثم انفجر قائلا : إن الباقمة الاوربى هو الذى علم أهل الدين ، الوطنية والقومية، أما هو فلا يزال يبحث عن مركز لجميع الشعوب والأوطان ، ولكنه بذر فى الشرق بذور الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصر والشام والعراق . فتحرر أيها المسلم الشرقى ! من قيود الوطنية والقومية ، وكن « عالميا آفاقيا » يعتبر كل بلد وطنه ، وكل أرض أرضه . إن كنت تميز بين « الجميل » و « القبيح » فلا تربط نفسك وقلبك بالتراب ، والحجارة والقرميد . إن الدين هو أن ينهض الانسان من الحضيض ، ويعرف قيمة نفسه . إن الذى عرف « الله » وآمن به ، ولم يسعه هذا العالم ، ولم ينحصر فى الجهات . إن الحشيش ينبت على التراب ، ويفنى فى التراب ، ولكن النفس الانسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب . إن آدم ولو خلق من ماء وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين إن جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به فى الاجواء الفسيحة إن الروح لاتنحصر فى الجهات ، وان « الحر » لايعرف القيود والحدود فإذا حبس فى « التراب »(١) اضطرب وثار ، لأن الصقور لاتستريح ولا تهدأ فى الاوكار .

إن هذه الحفنة من التراب ، التى نسميها « الوطن» ونطلق عليها أسماء

---

(١) يعنى به (الوطن) .

« مصر » و « إيران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسب ، لأن هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ولمعت من أفقها ، ولكن لاينبغى أن تنضوى على نفسها وتنحصر فى حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسناها ونورها من الشرق ، ولكنها لاتلبث أن تتحرر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه . إن فطرتها بريئة من الشرق والغرب ، وإن كان مولدها وظهورها فى الشرق

أما الشيوعية ، ياعزيزى ! فإن مصدرها ذلك الإسرائيلى ، الذى خلط الحق بالباطل ؛ وآمن قلبه وكفر عقله . إن الغربيين فقدوا القيم الروحية ؛ والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح فى « المعدة » إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لاشأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون إن الأخوة الانسانية لاتقوم على وحدة الأجسام والبطون ؛ إنما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس .

إن الملوكية سمن ، يطرأ على الجسم ، صدرها مظلم خاو ، ليس فيها قلب خفاق إنها كالنحلة تجلس على كل زهرة ، وتتشرب منها الرضاب ، وتغادرها إلى زهرة أخرى ، وتبقى هذه الزهرات بلونها وشكلها ورائحتها ولكنها أوراق بالية وحشائش ذاوية . كذلك الملوكية تستحوذ على الشعوب والأفراد ، و تمتص منها دماءها ، وتتركها أجسادا هامدة .

إن « الملوكية » و « الشيوعية » تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق

والـ آمة ، والجهل بالله والخداع الانسانية . الحيـــاة عند الشيوعية « خرء ح » (١) وعند الملوكية « خراج » ، والانسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج . إن الشيوعية تقضى على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء . وتسلب القوت من أيدى العاملين والفقراء . لقد رأيت كلتيهما غارقتين فى المادة ، جسمهما قوى ناضر ، وقلبهما مظلم فاجر .

الا ! من يبلغ « روسيا » أن القرآن وتعاليمه فى واد والمسلمين فى واد . لقد انطفأت شرارة الحياة فى صدور المسلمين . وانقطعت صلتهم عن النبى محمد ﷺ . إن المسلم اليوم لا يؤسس حياته ولا ينظم مجتمعه على مبادىء القرآن ، وقد أفلس لذلك فى الدين والدنيا لقد ثل عرش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكيا ، وتربع عليه ، واقتبس من العجم الملوكية وأساليبها ، وبذلك تغير نظره إلى الحياة ، وتغير منهج تفكيره .

لقد حطمت « القيصرية والكسروية » مثلَ المسلمين فى العصر القديم فاعتبرى أيتها الأمة الروسية ! من تاريخنا . عليك بالثبات والاستقامة فى معركة الحياة . فاذا كنت قد كسرت هذه الأصنام « الملوكية والوطنية » فلا تعودى إليها . ولا تطوفى حولها مرة ثانية . إن العالم اليوم يطلبه

---

(١) يعنى تجرد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

أمة ، تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرحمة والشدة . فاقتبسى من الشرق ديانته وروحانيته . لقد أصبحت ديانات الافرنج ودساتيرهم عتيقة بالية ، فلا تعودى إليها مرة ثانية . لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفى « لا إله » فعليك أن تبدأ مرحلة الاثبات « إلا الله » وهكذا تكملين مهمتك ، وتتمين رحلتك العظيمة . إنك تبحثين عن نظام للعالم ، فعليك أن تبحثى له عن أساس محكم ، وليس هو إلا الدين والعقيدة .

لقد محوت يا روسيا ! أساطير الأولين أسطورة أسطورة ، فعليك أن تدرسى الآن القرآن سورة سورة . وما أدراك ما القرآن ؟ إنه نعى للملوكية والسخرة ، وحتف للاكتناز والأثرة ، وحياة للصعلوك ، وبشرى للمملوك . إنه يذم الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، ويحث على إنفاق كل ما فضل عن حاجة الانسان ، ويقول فى صراحة « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » انه يحــــرم الربا ، ويحل البيع ، ويحث على القرض الحسن ، وهل يتولد من الربا الا الشرور والفتن ، والقساوة والضراوة ؟ ان اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكل ما فى الدنيا ملك لله تعالى ، ومتاع للعبد ، والانسان أمين فى مال الله ، وصى على أرضه وخلقه ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . لقد انتكست راية الحق بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدن بظلمهم وعبثهم . إن المبدأ الذى يقرره القرآن : أن قوت بنى آدم من مائدة واحدة ، وأن الأسرة الانسانية كلها كنفس واحدة (١)

---

(١) ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة .

إنه لما قامت دولة القرآن ، اختفى الرهبان والكهان ، أقول لك ما أؤمن به وأدين . إنه ليس بكتاب فحسب ، انه أكثر من ذلك : اذا دخل فى القلب تغير الانسان ، وإذا تغير الانسان تغير العالم : إنه ظاهر ومستتر ، كتاب حى خالد ناطق : انه يحتوى على جدود الشعوب والامم ، ومصير الانسانية .

لقد ابتكرت تشريعا جديداً ، ودستورا جديدا ، فجدير بك أن تنظر الى العالم بنور القرآن نظرا جديدا (١)

* * *

(١) « جاويد نامة » فلك عطارد باختصار واقتباس .

في مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلّم

لقد عاش الدكتور محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف العصر — مدة حياته — فى حب النبى ﷺ ، والأشواق إلى مدينته ، وتغنى بهما فى شعره الخالد ، وقد طفح الكأس فى آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينيه وانهمرت الدموع . ولم يقدر له الحج ، وزيارة الرسول ﷺ بجسمه الضعيف ، الذى كان من زمان يعانى الأمراض والأسقام ، ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوى ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلق فى أجواء الحجاز ، وتحدث إلى الرسول الأعظم ﷺ بما شاء قلبه وحبه ، وإخلاصه ووفاؤه(١) . وتحدث إليه عن نفسه ، وعن عصره ، وعن أمته ، وعن مجتمعه . وقد فاضت فى هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعانى

(١) ليس هذا الحديث من الاستعانة فى شىء ، إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب ، استعمله شعراء ايران والهند قديماً وحديثاً .

والحقائق التى كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها . وينتظر فرصة إطلاقها ؛ وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهـذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامة جرعى دومه الجنـدل ، اسجعى
فأنت بمـرآى من سـعاد ومسـمع

فكان شعره فى النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها ، وكان حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويرا لعصره وتقريرا عن أمته ، وتعبيرا عن عواطفه .

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات . وهو يتخيل أنه مسافر إلى مكة والمدينة — شرفهما الله — يهوى به العيس ، ويسير به الركب على رمال وعساء ؛ يتخيل ، بشدة شوقه وحبه ، أنها أنعم من الحرير وان كل ذرة من ذراتها قلب يخفـق ؛ فيطلب من السائق أن يمشى رويدا ويرفق بهـذه القلوب الخفاقة . ويحدو الحادى بما لا يفهمه ، فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ .

ثم يسعد بالمثول بين يدى الرسول فيصلى ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه . وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه ، وبلاده ، والفترة التى يعيش فيها ؛ وعن أمتـه ، وعن الأزمات ، والمشكلات التى تعانيها ، وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثان ، وما فعلت بها هذه الحضارة

الغربية . والفلسفات المادية ؛ وما فعلت برسالتها والأمانة التى حملتها ، وأين هى من ماضيها وخصائصها ؛ يرثى لها تارة ويبكى ، ويشكرها مرة ويعاتب ، ويشكو غربته فى وطنه ، ووحدته فى مجتمعه ؛ وضيعة رسالته فى أمته . وقد سمى هذه المجموعة « بهدية الحجاز » ، كأنها هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ؛ ولا شك أنها هدية مباركة للعالم الإسلامى ، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز .

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على الستين ووهنت قواه ، فى سن يفضل فيها الناس الراحة والإقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ؟ والسفر إلى الحجاز شاق مضن ، وقد نصحه الأطباء ، والأحبة بالراحة والهدوء ؛ ولكنه يعصيهم ويطيع أمر الحب ، ويلبى منادى الشوق ويقول :

لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبى وكبر سنى ؛ أغنى وأنشد الأبيات فى سرور وحنين ؛ ولا عجب فان الطائر يطير فى الصحراء طول نهاره ، فإذا أدبر النهار ، وأقبل الليل رفرف بجناحيه ، وقصد وكره ليأوى إليه ، ويبيت فيه » .

كأنه يقول لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة — وهى وكر طائر الروح ومأوى المؤمن — فى أصيل حياتى ، وفى سن أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب ؛ أما رأيتم الطائر إذا جن الليل أسرع إلى وكره .

بدأ محمد إقبال سفره ، وهو شيخ مريض ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثا ، وقد قال لها : « رويدك ياحبيبتى ! فان راكبك لاغب ، ومريض ، وكبير السن ؛ فمشت فى نشوة وطرب ولم تبال ، كأن الصحراء حرير تحت أرجلها » .

يسير الشاعر فى هذا الركب الحجازى الذى يحدو بالصلاة على النبى ﷺ : ويريد الشاعر أن يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها فى جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه .

ويملكه الشوق ، فيحدو ، وينشد أبياتا من شعر العراقى(١) والجامى(٢) فيتساءل الناس : من هذا الأعجمى الذى يغنى ويحدو بلغة لا نفهمها ، ولكنها نغمة تشجى القلوب وتملؤها إيمانا وحنانا ، حتى يذهل الرجل فى هذه الصحراء عن الغذاء والماء ؟ ! ،

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه فى الطريق ، من سهر وعناء ، وقلة طعام وشراب . ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصول ، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول ، حتى يعيش فى هذه الأشواق ، وفى هذا الحنين مدة أوسع ، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزهة المشتاق .

. . . .

(١ و ٢) شاعران فارسيان ، لهما قصائد وأبيات سائرة فى الآفاق فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم .

وهكذا يطوى محمد إقبال هذه المسافة ، فى سرور وحنين ، حتى يصل الى المدينة ، فيقول لزميله : تعال ياصديق ! نبك سروراً ونتحدث ساعة ، ونرسل النفس على سجيتها فان لنا شأنا مع هذا الحبيب ، الذى أسعدنا به الحظ ، بعد طول فراق وشدة اشتياق .

ويقبل على نفسه ، فيتعجب كيف اختص ، من بين أقرانه : بهذه السعادة ثم يقول : « لا عجب فان المحبين المتيمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين . ياسعادة الجد . وياحسن الطالع ! ! لقد سمح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك » .

ولا يلبث محمد إقبال — وهو فى هذا الفيض من السرور والسعادة — أن يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندى ، يذكر آلامهما وآمالهما ، فيذكر كل ذلك فى بلاغة الشاعر ، وحقيقة الرائد ، وما أجملهما إذا التقيا . يقول :

« إن هذا المسلم البائس ، الذى لا تزال فيه بقية من شمم وإباء ، وأنفة الملوك وعزة الآباء ، لقد فقد مع الأيام ، يا رسول الله ! لوعة القلب واكسير الحب ؟ إن قلبه حزين منكسر لا يعرف سر ذلك » .

بماذا أحدثك يا رسول الله ! عن آلامة ورزيئته . حسبك أنه هوى من قمة عالية . إنه هبط من تلك العلياء التى وصلت به إليها . وكل ما ارتفع المكان الذى يسقط منه الإنسان كان ألمه شديداً . وكانت

الصدمة عظيمة ، فلطف الله ! بهذه الأمة المنكوبة ، الهاوية من قمة المجد العالية » .

« إنه لايزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه تائهاً فى الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله . حسبك من هذه الأمة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ، أنها تعيش من غير إمام » .

« إن غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ، وإن الكتاب ، الذى فتح به العالم ، وضعه فى بيته الخرب ، على طاق تراكمت عليه الأتربة ، ونسج عليه العنكبوت » .

« إنه أصبح ، بطول عهده بالمغامرات والبطولات ، لا يفهم لغة المغامرين ، وإهابة الشجعان المجاهدين ، وقد ألف نغمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين » .

وإن عينه فقدت النور ، وإن قلبه حرم السرور . إن رزيئته أنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور » .

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم ، الذى كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء ، وحاضره القاسى الكالح ، وكيف صعب عليه أن يتقشف ، ويعتمد على نفسه ، ويكدح فى الحياة . وما أبلغ قوله : « إنه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربيته بالفواكه ، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته فى الصحراء » .

ويتذكر محمد إقبال فتنة اللادينية التى توجهت إلى العالم الاسلامى، ويعرف محمد إقبال — وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد — أن سببها النظر المادى البحت، وخواء الروح، وبرودة القلب، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التى يعيشها كثير من الناس. ويعتقد أنه لاسبيل إلى محاربة هذه اللادينية، والفلسفة الاقتصادية المادية إلا الحياة التى تقوم على الحب والزهد، والحياة التى كان يعيشها أبو بكر الصديق، المحب الزاهد. فيتمنى للمسلمين هذه الحياة المثالية التى يسيطر عليها الحب والزهد: وإذا وجدت هذه الحياة اضطر الناس إلى تقديرها وإجلالها.

إنه لا يعلل انحطاط المسلمين بالفقر، والضعف فى المادة، بل يعلله بانطفاء تلك الشعلة التى التهبت فى صدورهم، ويقول: «إن أولئك الفقراء — المسلمين الأولين — لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم فى صف واحد، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك، ولما انطفأت هذه الجذوة فى صدورهم وانطووا على نفوسهم، وأووا إلى الزوايا والتكايا».

إنه يستعرض تاريخ المسلمين، فيرى فيه مايخجل كل مسلم، يرى فيه مالا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا، ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله، وخضوع للجبابرة والطغاة، مايندى له الجبين حياء. يذكر «إقبال» ذلك كله ويطرق رأسه حياء وخجلا، ويقول

فى صراحة واعتراف ، وبلاغة وإيجاز : « إن جملة القول ، ما كنا جديرين بك يارسول الله » .

ويلقى نظرة على العالم الاسلامى ، وقد جال فى أنحائه ، وعرف مراكزه . فيشكو ضعفه وفقره المعنوى ، ويقول فى إجمال : « إن المراكز الروحية (الرباطات والزوايا) أصبحت فقيرة لاتملك غذاء القلب ولاتحمل رسالة الحب . والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) طغى عليها التقليد ، فهى تردد ماتلقته فى العام الماضى ، فى غير إبداع وابتكار ، وهى كثور الطاحون يدور فى دائرةواحدة ، أما أندية الشعر والأدب ، فقد خرجت منها كئيبا حزينا ، فليس فى نغماتها وأفكارها مايبعث الروح ويثير الطموح ، انه شعر بارد ، يخرج من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت »

ويقول : « قد ضربت فى مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن تغص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذى يفرَق منه الموت ، فلم أر له عينا ولا أثراً » .

ويذكر السر فى ضعف المسلمين ، وتشتت أهوائهم وخمودهم ، فيقول : « لقد شق على ما أراه من سوء حال المسلمين يوما ، وشكوت إلى ربى ، فقيل : ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب ؟! يعنى أنهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ، ويوجهونها إليه . فقلوبهم تائهة ، وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولاسرور » .

وهى حياة من رزق القلب وحرم الحب ، أو حياة من عرف الحب ، وجهل المحبوب. إنها لاشك، حياة عذاب وشقاء ،وحياة حيرة وضلال.

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير قانط من رحمة الله ، بل ينتقد رجال الدين فى يأسهم من المسلمين . وقطعهم الرجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول فى عتاب وتألم : « إن أحوالهم وأحاديثهم تنم على أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وأنهم متشائمون ، ينظرون إلى المسلمين ، وإلى الحياة بمنظار أسود . ويقول: « أن المسلم ، وإن كان قد تجرد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره ، لايزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ، وأنه إن قدر له أن يعود إلى مركزه ، كان جماله جلالا ، وكانت له سطوة لاتطاق » .

وهنا يقبل محمد اقبال إلى نفسه ، فيحكى حكايتها ، ويشكو مايعانيه من أهل عصره ومجتمعه . يقول : « إنى أستحق العطف والعناية ، فانى فى صراع عنيف ، وحرب دامية ، مع عصرى المادى » .

ولا شك أن اقبال قضى حياته فى صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحداهما وانتقدهما ، وزيفهما فى شجاعة وعلى بصيرة وخبرة ، وقد كان مربى جيل جديد ، مؤمن بالله ، واثق بنفسه ، معتد بشخصيته وشخصية الإسلام . كافر بالأسس المادية والتفكير المادى ، الذى قامت عليه الحضارة الغربية ، وحق له أن يقول:

« لقد أذنت فى الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومى ، فقد تعلمت منه أسرار الروح والحب . لقد كان ثائراً على فتن عصره ، وكنت ثائراً على فتن عصرى » .

ويذكر تمرده على العلوم الغربية ، وتفلته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وإيمانه وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة : « كنت كطائر يقع على شبكة ، فيقرض الحبال ، ويأخذ الحب ، ويطير بسلام » . وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ، ورمى بقشورها ، وخرج من حبائلها سالما .

ثم يقول فى افتخار واعتزاز : « يعلم الله ! إنى رحلت فى أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير أن أرزأ فى عقيدتى ، وخلقى وصلتى بك . وقد جلست فى نارها بشجاعة ، وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن إبراهيم عليه السلام — مع نار نمرود » .

وهنا يتذكر الشاعر حياته التى قضاها فى عواصم أوروبا ، بين الكتب الجافة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة ، فيقول : « لقد بقيت هـذه المدة ذاهلا عن نفسى ، جاهلا لشخصيتى . حتى لما وقع بصرى علىّ لم أعرف نفسى » .

ويقول : « لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمر حانته كأساً دهاقاً ، ياله من صداع اشتريته ! لقد عشت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يالها من فترة مظلمة قضيتها من حياتى ! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب . إن دروس الحكماء قد صـدعت رأسى ، وكدرت بالى ؛ ذلك لأنى نشأت فى حضانة الحب والإيمان ، فلا يناسبنى ولا يملأ فراغ نفسى إلا العاطفة والحنان » .

وهنا يقبل الشاعر إلى الطبقة التى تمثل العلم والدين ، فينتقدفيها الجفاف ،

واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول : «إن العالم الدينى لايحمل همًّا ، إن عينه بصيرة ، ولكنها جافة لاتدمع . لقد زهدت فى صحبته لأنه علم ولا هم ، وأرض مقدسة ولا زمزم » .

لقد شبهه محمد إقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلا كبيراً ، ولكنه مع الأسف رمال جافة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ومكة ببيتها وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب . فما أفقر العالم الدينى الذى يحمل علماً جماً ، ولساناً بليغاً ، وعقلا مستنيراً ، ولا يحمل دمعة فى عينه ، ولا لوعة فى قلبه . إنه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها .

ثم يحكى عن نفسه ، ويقول : « إننى لم أبع نفسى وضميرى لأحد ، ولم أستعن بأحد فى حل مشكلاتى ، ذلك لأنى اتكلت على غير الله مرة واحدة ، فسقطت عن مقامى ، وعوقبت بالهوان مائتى مرة » .

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه فى حزن وألم ، فيقول : « إنى أحترق بنار شوقى وحبى ، وأستغرب أنى خلقت فى عصر لايعرف الإخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ، فى عصر لم يعرف لوعة القلب ، ولم يذق الحب ، أنا غريب فى الشرق والغرب ، أعيش وحدى ، وأغنى وحدى ، وقد أتحدث إلى نفسى وأخفف من أشجانى وآلامى » .

ويقول : « إن إخوانى لم يعملوا بما قلت لهم ، إنهم لم يجنوا

الرطب من نخـــل شعرى ، إليك أشكو ياسيد الأمم ! من أناس لا ينظرون إلى إلا كشاعر أو متغزل .

لقد أمرتنى يارسول الله ! أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكن هؤلاء القساة يقترحون على أن أنوح الأموات فى الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما أمرتنى به » .

ويشكو فى توجع وحزن عميق ، زهد أبناء عصره فى العلم الذى كان يحمله ، والرسالة التى يقوم بها فى شعره ، ويقول : « عرضت قلبى عسى أن يستأسره أحد ، فلم أر فيه راغباً ولا له طالباً ، وأبحت ثروتى ، وما يحويه صدرى فلم أر لها مقدرا ، فليعمر حبك قلبى ، وليشغل حديثك لسانى ، فإنى لا أجد فى العالم من هو أشد وحدة وأعظم غربة منى » .

ويختم قصيدته بأبيات يوجهها إلى المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود — باعتباره ملك الحجاز فى عهده — وهو خطاب موجه إلى جميع ملوك العرب ، وزعمائهم ، وعظمائهم يحذره من الاستعانة بالأجانب ، والدول الأوربية ، ويدعوه إلى الاعتماد على الله ، ثم على ما عنده . يقول : « اضرب خيمتك حيث شئت فى الصحراء ، ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك ، ولا تنس أن استعارة الأطناب من الأجانب حرام » .

شكوى ومناجاة (1)

كان محمد إقبال كثير الاعتداد بالإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

«إن الفقير المتمرد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

---

(1) ملتقط من كتاب «الطريق إلى المدينة» للمؤلف ، تحت عنوان «شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم» ص ١٣٥ ـ ١٤٣ .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدة أجنبية ، أو أن يروى غلته من معين غريب يقول : « رفقاً يارســـول الله بفقير غيور أبى النفس رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب » .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان ، فى الثالث من أبريل سنة ١٩٢٦ م وهو عليل رهين الفراش فى بهوبال (الهند) وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامى المخزى ، والفراغ الفكرى والروحى الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الاسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومثلها وقيمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعر من أبلغ الشعر الوجدانى ، تحدث فيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وشكا إليه فى عالم الخيال ضعف العالم الإسلامى وفقره الروحى وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده فى نفسه من فتور بعد النشاط ، ومن ضعف فى العمل ، يقول :

اشكو إليك يارسول الله صلى الله عليك وسلم، هذه الامة التى تسلط عليها خوف الموت ، إنك حطمت الأصنام القديمة كاللات ومناة ، وجددت العالم القديم ،الذى سرى فيه الهرم ، ودب فيه الموت ،فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمد من الشهادة التى لقنته إياها الانتباه والحضور،والنور والسرور.

إننا — وإن ولدنا فى بلاد عريقة فى الوثنية — رفضنا أن نعبد

الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهان والسدنة ، فلم نخر بين يدى الآلهة القديمة ، ولم نطف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء ، والفضل فى كل ذلك يرجع إلى دينك الذى جئت به ، وإلى جهادك الذى قمت به ، فقد تربينا على السفرة التى بسطتها للعالم ، وقد ظل حديثك مصدر الشوق والسرور الأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبية فى الفقر ، عفيفة فى الحاجة ، ولكن العالم الإسلامى اليوم ، قد فقد الشىء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجولت فى ربوع العالم الإسلامى ، وزرت بلاد العرب وديار العجم ، فرأيت من يقتدى بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه ، كثيراً يوجد فى كل مكان ، إن الشباب الإسلامى قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم إنهم فى شبابهم ناعمون رقاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشأوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيل بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها .

إن نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النزعة الدينية حتى أصبحوا حيث كان ، إنهم هاموا بالغرب وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمة حقيرة ، فاصبحت الصقور التى تحلق فى السماء، عصافير صغيرة لاشأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامى البعيدة .

إن أساتذة هـذا الجيل الذين بضاعتهم فى العلم مزجاة لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إن نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح فى هـذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سر الموت ولذته . ولا يؤمن كما كان يؤمن فى القديم بأنه (لا غالب إلا الله) . لقد مات قلبه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكر إلا فى المنام والطعام ، إنه حكَّم الغرب فى نفسه ليتاق منه رغيفاً ، وقبل منة مائة إنسان من أجل بطن واحد ، إن محطم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنه يشترى من الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إن هـذا الجيل قد أصبح فى حاجة إلى بعث جديد ، وإلى أن نقول له مرة ثانية ، قُم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يثُلوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسم هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسى فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العنان ، وقف بى لحظة ، أبث اليك بالأشجان والأحزان ، وقد تلجلج لسانى وخاننى البيان ، انى فى صراع بين سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إن الشوق يقول لى : تشجع وتكلم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، والأدب يقول : إياك والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكن الشوق

عصى ثائر ، لايخضع الأدب ، إنى أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذى زهد فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ولامر ما تراميت فى أحضانك ، إن صوتى قد اختنق فى حلقومى ، وإن اللهيب عاد لايتجاوز صدرى ، وان أنفاسى قد تجردت من لوعة القلب ولهيب الصدر ، وانى فقدت اللذة التى كنت أجدها فى قرآن الفجر .

إن الزفير الذى لايسعه الضمير كيف يستقر فى الصدر كالعانى الأسير ؟ إنه يحتاج الى أجواء لانهاية لها ، وإلى سعة السموات التى لاحدود لها ، يالها من علل يعانيها جسدى وروحى ، ولادواء لها ، إلا أن تنظر إلىّ من طرف خفى ، إن هذه الأدوية التى يصفها الأطباء لاتناسب روحى العليلة . فإن شامتى اللطيفة لاتحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا ارجع فيه إلى طبيب ، فأبكى بكاء الأطفال ، اذا جرعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسى ، فأمزجه بالحلاوة حتى تسهل إساغته ، إنى كالبوصيرى أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إلىّ ذلك اليوم الذى فقدته ، إن العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأم الحنون الرؤوم فى عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

انى مع عبّاد الليل والظلام فى صراع شديد ، فمُدَّ سراجى بمدد من الزيت من جديد ، ان وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللانسانية خصباً وربيعاً ، فلا تضن علىّ بشعاع من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إن قيمة

الجسم بالروح ، وإن قيمة الروح هو إشراق من المحبوب ، إنى أريد أن ينقطع رجائى عن غير الله ، فاجعلنى سيفاً ، أو اجعلنى مفتاحاً .

لقد أسرع بى ذهنى الوقاد فى مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بى عملى فى مجال الكفاح ، إن مهمتى أصعب وأدق من مهمة «فرهاد» الذى كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا فى حاجة إلى آلات أحدّ ، وقوى أشد ، حتى أتم مهمتى ، وأحقق رغبتى ، إنى مؤمن لا أكفر بشخصيتى ومواهبى ، فضعنى على المسن ، فإنى حديد من معدن كريم .

إنى وإن كنت قد ضيعت شبابى ، وأتلفت حياتى ، ولكنى أملك شيئاً اسمه «القلب» إنى أغار عليه وأستره من العيون ، لأنه يحمل أثراً من حافر جوادك الأصيل ، ان العبد الذى قد زهد فى زخارف الدنيا ، إنما يتسلى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يامن منح الكردى لوعة العرب ، اسمح للهندى أن يمثل بين يديك ، ويتحدث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لايعلم أصدقاؤه وزملاؤه مايعانيه من حزن وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذى لاراحة له ولا انقطاع ، انى كحطب فى الصحراء مرّ به ركب فأشعل فيه النار وأعجل الركب السير، فمضى وخلفه، وبقى الحطب يشتعل ، وينتظر ركبا جديداً ليستهلكه ويأتى على بقيته ، فمتى يمر به ركب جديد فى هذه الصحراء الموحشة المظلمة ؟ .

• • •

الحقائق التاريخية في شعر إقبال[1]

لم يكن إقبال أخصائياً فى مادة التاريخ ولم يزعم لنفسه امتلاكا للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعا على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه فى مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به عن بعيد أو قريب بالنقد والتعريف أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال إنه لم يختص فى هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن ، ولكن من البديهى المعروف أن دراسته كانت واسعة متنوعة عميقة، وأنه تأمل خلال بحثه العلمى المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة فى تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفى الأديان والأخلاق ، وفى المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب، ونزل فى أغوارها، واهتدى

---

(١) محاضرة أعدها مؤلف الكتاب لتلقى فى ندوة علمية فى « شيكاغو » (الولايات المتحدة ـ أمريكا) فى أغسطس ١٩٧٥ م ، وكتبها أصالة فى أردو ، نقلها إلى العربية الأستاذ محمد الحسنى رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامى » .

إلى أسرارها، ورغم أن التاريخ — كما قلنا — لم يكن محور دراساته إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لائقة شأن كل باحث يهمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثانى أن الفلسفة تثير فى الإنسان تطلعا قويا إلى الحقيقة المجهولة، وتحدث فيه ملكة خاصة فى ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة والتوصل من المقدمات إلى النتائج، ومن الجزئيات إلى الكليات، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها، لذلك نجد إقبال يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز الذى يحتوى على مواد أساسية ومبادىء واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها، ورقيها وزوالها، والذى يكشف الستار عن الحوادث التى ستواجهها الإنسانية فى المستقبل، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها — كشفا تتحير له الألباب، ويقف عنده العقل عاجزا مشلولا لا يجد له التأويل، غير أن هذا الكتاب الذى نزل على « الأمى ابن البادية » — كما يقول إقبال — منزل من الله العليم الخبير الذى فطر

السماوات والأرض ، وذلك ماقاله إقبال عند ما قدّم إلى الامير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، فى ضميره حياة وروح ، تندرج فى بدايته النهاية ، به فتح علىّ باب خيبر »

ويقول فى ديوان « أسرار خودى » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة فى الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشى أسرار تكوين الحياة ، ويثبّت الضعيف الذى تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا فى غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أى مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية ، فى شعره الحى أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحا وافيا ، فقد جمع فى بعض أبياته ومقطوعاته أحيانا وفى بيت واحد بعض الحين عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكتبات كاملة تكونت فى التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره فى نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهى كثيرة) أن يأتى رائعاً أخاذاً كما هو الحال فى شعره

الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الاشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التى جاءت فى شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الانسانى والتاريخ الاسلامى وعلى علوم القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التى يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة (Dark Ages)

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التى تجلت فى شعره من غير تدقيق وتمحيص كبير واستيعاب شامل لكل ما ورد فى هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه فى صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارىء ، ودراسته للتاريخ الذى يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لانستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التى قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذى تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التى أنشدت فيها والظروف التى دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة ـ وخاصة المسيحية ـ الحياة الانسانية فى قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضى

فى معسكرين ، معسكر رجال الدين ورجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان أن هناك خصومة وعداء بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له — على حد قولهم — أن يركب سفينتين فى وقت واحد ، وأنه لاسبيل إلى الكفاح الاقتصادى ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة ، وإعراض عن فاطر السماوات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع صلة عن الدنيا ومافيها .

المعلوم المقرر أن الانسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشرى فى الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت الغرائز الطبيعية ، البريئة فى الانسان ، وكانت نتيجة هـــذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ، ورضوا بها — كحاجة اجتماعية وواقع حى — واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل فى الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا

التناقض الذى حسبوه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذى كان ينتزع الحكم الدنيوى على الكنيسة التى كانت تمثل الدين وتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات بطبيعة المنطق — كفيل هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا لم يضع حدا على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والارض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية وكانت فريسته الغرب أولا والامم التى دانت لها فى الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانيا ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق فى التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعا فى إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة(١) ، وقدموا صورة وحشية كالحة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر فى النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى — فى أوسع معناها — إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفى نقيض ثم سقطت أخيرا بضعف الوازع الدينى أو فقدان الحاسة الدينية فى هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة(٢) .

---

(١) انظر « تاريخ أخلاق اوربا » ج/٢ لمؤلفه ليكى .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » باب « الإنسانية فى الاحتضار » .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنتها العظيمة ـ ونداؤها الذى دوت به الآفاق ـ أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذى ينشده المرء الذى عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق «النية» (١).

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهادا أو قتالا أو حكما أو إدارة أو تمتعا بطلبات الأرض وتحقيقا لمطالب النفس ، وسعيا لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعا بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه والخضوع لأوامره ونواهيه وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهادا وذكرا وتسبيحا ، وقتالا فى سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والدعى بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالا ، وتكون بينه وبين الله حجابا(١) » .

---

(١) هذا الحديث الصحيح الذى بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة والذى افتتح به الامام البخارى الجامع الصحيح :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

(٢) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، أنظر أبواب الاخلاص والنية ، والايمان والاحتساب .

وإنها مأثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنته العامة الخالدة على الانسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين الذين عاشا فى خصام دائم وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان فى إلف وود ، ويتعايشان فى سلام ووئام ، إنه ﷺ رسول الوحدة وبشير ونذير فى الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشرى من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الايمان والاحتساب والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

إنه أعلن بالآية التالية « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » إن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة مضادة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله فى زى الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيها أمراء وأغنياء فى مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا فى ذلك تناقضا ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرجا .

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبال الذى أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للاسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف

في إطار صغير أو زجاجة رائقة من أبيات ، تتراءى لنا بجلادتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال .

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها - بالطبع - القيادة والسيادة والحكم والادارة ، فقد كان هناك عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام وذاك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيرا من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة ، وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيرا ونذيرا بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الانذار ، وفي انذاره البشارة .

ولا حفاظ للانسانية من أخطارها ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعباد مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد(١) » .

إن التاريخ الانساني الطويل — الذي أثخن بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب — يشهد بأن تجمع القوة والحكم

---

(١) بال جبريل

فى فرد أو جماعة لم يضر النوع البشرى مثل ماضره وجرّ الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولى هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شىء وقضاء الله المبرم الذى لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والانسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هى القوة ، أما الانسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبيح ، والخبيث والطيب ، فهى كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامى ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التى لا تملك حولا ولا طولا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) القوة هو الحق ، مقياس الحق والباطل وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شعب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الانسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشعبه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركانا ناريا هائلا يتفجر على الانسانية ؛ فلا تقف فى زحفه الجهنمى وسيله النارى حكومات مستقرة ، وامبراطوريات عظيمة ولا تمنعه حضارات إنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التى كانت تغيث الانسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها فى محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل النارى الجارف يأتى بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والانمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل مابناه الأوائل بل يقطع الأمل فى بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضى قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادى الخمر والقمار ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأسا على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزيزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه فى كتابه الخالد قائلا :

« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » (١)

وكانت فريسة هذه الشهوة — شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق — أمم قديمة ذكرها القرآن ؛ أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئا غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالى ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار .

---

(١) النمل — ٣٤

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون »(١)

وظهرت نتيجة هذا الذهول — الذهول عن الله — والابتعاد عنه وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالا حراً ، لا يبالى بأى قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أى وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أى حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذى بعث فى قوم عاد هذه الحالة النفسية فقال :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين(٢) » .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذا الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبث الطفل بجانب القرطاس ، انه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق فى العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إربا إربا .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذى ظن نفسه ربا وحاكما وتقلد هذا الحكم الأنانى المطلق ، فيقول: «إن فرعون علا فى الأرض وجعل

---

(١) فصلت — ١٥

(٢) الشعراء ١٢٨ — ١٣٠

أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين (١) .

ثم يصور القرآن فى موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد(٢) » .

إن التاريخ الإنسانى زاخر بهذه النماذج البشرية التى تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها فى مختلف أدوار التاريخ الروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، ورغبة عنيفة فى القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت فى حروبهم ومعاركهم ، وفى عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جلية ، يقول الدكتور درابر (Drapper) فى كتابه « الصراع بين الدين والعلم » Conflict Between Peligion And Science

(١) القصص — ٣

(٢) البقرة ٢٠٤ — ٢٠٦ .

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب الى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتارا ، وكان مبدأهم أن الحياة انما هى فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة وغادات رومية ، حسان وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالا ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا يتشحط فى دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان فى ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الإقطاع وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة . فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعا كالذى نراه فى حضارة

اليونان فى عهد انحطاطها (١) .

ثم اقرأ غزو التتار الوحوش فى القرن السادس الهجرى فى كتب التاريخ(٢) . إن الذين أحسوا فى أول صدام بأنه ليس هنا فى البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم . وكانت مأساة انسانية عامة ، لا نستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، انها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامى كله وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ؛ كان الجيل الإنسانى كله فى هذه الفترة المهيبة المروعة من الزمن فى وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا فى كتب التاريخ فحسب بل فى كتب الشعر والأدب والاخلاق والتصوف أيضا(٣) ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ؛ والاقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خرابا يبابا وقاعا صفصفا ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمى والمدنى ومسيرته الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامى الذى حمل لواء الدين والاخلاق والعلم والحكمة فى هذه الحقبة من الزمن سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمى والإعياء الفكرى والعقلى ،

---

(١) History of the conflict Between Religion & Science. London, 1927. P. P. 31—2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها فى كتاب « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ج ٢ تحت عنوان « التتار محنة العالم الإسلامى » .

ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان — وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعاقلها إذ ذاك — تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر قوية ذات شكيمة تواجه العاصفة بالاعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجدب العلمي حتى سدت بعض الأوساط العامية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل(١) .

إن قيصر ، والاسكندر ، وجنكيز وهولاكو ، وتيمورلنك ونادرشاه افشار لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال ، داء السكر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانو يقنصون الانسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الانسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرءوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل — كيف قدم شاعر الاسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مزق جنكيز واسكندر رداء الانسانية ، وهتكا ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الانسان مرارا وتكرارا .

---

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن الهجري عند إقبال .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر فى خطر ، ومصيبة على مصيبة إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، ويجعلها هباء منثوراً »

لقد يرى كثير من رجال الفكر فى الشرق أن أوربا (بمعسكريها الشرقى والغربى) وأمريكا أصابتهما هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، انهم اعتبروا انفسهم أوصياء (Gaurdians) على الشعوب والامم والحاكمين على مصائرهم وهم يزنون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة فى أى بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالا إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء فى الشرق أن القيادة الغربية هى المسئولة عن ذلك التدهور الخلقى والفوضى الفكرية العامة فى البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفى البلاد الاسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعى المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر فى أى قضية بحياد تام ورغبة مخلصة فى التوصل إلى كنه الامر ، وإيجاد حلها العادل ، بل انها تحالف — بالعكس — الظالم القوى فى وجه المظلوم الضعيف الذى له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النابغة مثل جمعية الامم المتحدة ومجلس الأمن فى مقاصدها وصارت لا تمنع صداما ولا تلم شعثا ولا تحقق

أملا ، ولا تقدر على إسعاف الانسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الاغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الاكبر من الاخلاص والحياد تأثير معونات الغرب السخية فى المشاريع العمرانية والغذائية فى الشرق ، ولم تحقق كثيرا من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذه المساعدات السخية والدعم القوى .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد فلا تتخبط كالفيل الهائج الذى أطلق من قيوده ، وتكون مركبا ذلولا لقائد عارف خبير لا راكبا ، تابعة لامتبوعا ، وسيلة لاغاية ، وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلا من عذاب ونقمة ، وحياة لاموت ، وأداة بناء لامعول هدم ، يستنجد بها فى إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير الانسان من سلاسل العبودية ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، ورد اعتبار الانسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة فى هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعى من جديد .

يقول إقبال : « إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سما ناقعاً وإذا كانت فى خدمته صارت ترياقا واقيا » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصالحة هى الفتوح المباركة والمغامرات التى قام بها العرب الأولون الذين اعتنقوا الاسلام وحملوا رسالته ودعوته

فى الآفاق ، واستعمالهم للقوة التى آتاهم الله استعمالا صحيحا لائقا ، والذى عبروا عنه على لسان سفيرهم باخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام .

أنه خاطب فى الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادى الرائع البناء فى تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، أشاد بهذه العقيدة والايمان والدعوة والرسالة التى كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا التحول العظيم فى سير الانسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهى من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبى الأمى حلة أنيقة ، وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت فى ظل هذا النبى بل ترعرعت ونمت فى حجره وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مدينا لأمسه .

لقد وضع قلبا نابضاً خفاقا فى جسد الانسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربى الصديق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه .

جعل سيف صلاح الدين البتار ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أردت العقل والقلب والتقى بها روح الرومى بكفر الرازى .

واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والادارة والحكم مع قلوب أواهة مخبتة منيبة فى الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذى نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لانه أسبغ نعمة الايمان على هذه الحفنة من التراب » .

من المفارقات العجيبة فى هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشأوا امبراطوريات عظمى ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة فى دور النهضة والرقى ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين صابرين مغامرين ، زاهدين فى الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ،

وصبرهم على المكاره فى تأسيس تلك الحكومات التى ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة المناصب أثر فى أخلاقهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، وتمرغوا فى النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كأس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة . إنما هى تصميمات أزياء ، وأقســـام أطباق ، والتنافس فى الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا فى ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الانسانى منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : « كلا إن الانسان ليطغى، أن رآه استغنى » (١) .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب فى أى دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التى قامت على وجه الأرض قديما وحديثا ، ترى هذا التفاوت واضحا بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر ، فى السير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفى الأقدار والمقاييس .

---

(١) العلق ، ٦ ، ٧

ونكتفى هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التى سبقت قريناتها فى حمل لواء التعاليم الخلقية فى هذا العالم ، وهى أمة نبى جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتى قامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فان أمثلتها ونظائرها تكثر ــ طبعا ــ فى الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفى حكومات وحضارات أخرى .

الواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام فى العالم وإجراء شريعة السماء فى الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشى الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر وجلاد ، وزهد وشظف(١) ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية فى الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التى فقدتها سائر الشعوب فى العالم ، نجحوا فى إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التى حكمت باسم الخلافة خمسمائة سنة حكما مستقلا ذاتيا ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عصر الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن

---

(١) إقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر فى تاريخ الاسلام » لكاتب هذه السطور .

عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون فى فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء وفاضت عاصمتهما بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق فى الترف والتمرغ فى النعيم ، والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالى الأمور فى غارة التتر الوحشية فى زمن الخليفة العباسى المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين(١) .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتى قطب الدين النهروالى المكى (وهو أحد المؤرخين والعلماء فى القرن العاشر الهجرى) يصف ما كان عليه أهل العاصمة فى هذه الفترة من الزمن :

« مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، فى ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حربا ولا دافعوا طعنا ولا ضربا »(٢) .

---

(١) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » الجزء الثانى باب « التتار محنة العالم الاسلامى » .

(٢) الاعلام بأعلام بيت الله الحرام — ١٨٠ .

ونقدم المثل الثانى من الدولة المغولية فى الهند التى أسسها ظهير الدين بابر التيمورى (١٤٨٢م — ١٥٣٠م) فعلا على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندى مقابل مائة ألف مقاتل تحت راية «رانا سانجا» وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقا جديدا للفتح، يحكى المؤرخ الهندى الشهير محمد قاسم البيجابورى المعروف بفرشته فى تاريخه:

«إن رانا سانجا، توجه إلى بابر يقود مائتى ألف مقاتل من أهل البلاد، وساد الذعر فى جيش بابر ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع فى الحرب معه، وتكهن منجم البلاط محمد شريف بأن الهزيمة محتومة، ولكن بابر صمم على القتال وقال: إذن ينبغى لنا أن نتهيأ للشهادة فى سبيل الله، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق، وارتفع هتاف الجهاد فى كل جانب من جوانب الجيش وتاب الملك عن الخمر التى لم يكن يفارقها فى وقت من الأوقات، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية وقاوم «رانا سانجا» بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه، وكان ذلك فى الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ».

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التى قامت على مثل هذا العزم والحزم، والتضحية والفداء، وميثاق مع الله، والتى تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل «همايون» و«أكبر» و«أورنك زيب» إلى حماة الرذيلة والإسفاف، والشهوة واتباع الهوى، واتباع الرغبات وإتيان المنكرات، تجلى أخيراً

بصورة واضحة مؤسفة فى حياة « محمد شاه » (١٧١٩ — ١٧٤٨ م) وما جرى فى قصره حتى سمى باسم « رنكيلا » واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه فى التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية :

إن الملك محمد شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار النغم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء ... ولذلك سمى المسكين فى الأخير « رنكيلا » يعنى « الماجن » وهجره وزيره آصف جاه عندما رأى حالته فانصرف إلى جبال الدكن وغاباتها » .

وجاء فى بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوى ما يلقى الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة :

« كانت النساء فى بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورود والأزهار والبان يساوى ثمنها ثلاثمائة روبية كل يوم »(١) .

تأمل فى غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضى الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقيها وانحطاطها فى بيت واحد :

« تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح أولا ، ولهو وغناء آخرا » .

---

(١) تذكرة ص / ١٧٢ .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيمورا أو هولاكو أو نادرا ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون . وماذلك التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها - فى حينها - القدرة الالهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها فى أيدى القيادة الغربية (أمريكا وأوربا) وهى تجتاز فى هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقى والازدهار ، وهى مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة فى أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وقصر المستعمرات والجاليات وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق فى حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة والشذوذ الخلقى والجنسى ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية

والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل بأن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم فى مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك وتجرى فى عروقها الميتة دما فائرا جديدا ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل فى ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية فى الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لاتبغى بها بديلا ، ولاتجد عنها محيصا ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهى ليست فى حاجة إليها لأنها — على مايقول إقبال — مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذى اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك التى زودت بها أناسا لايخافون الله ولا يستحيون من الناس أوشكت أن تقضى على نفسها ويأتى حتفها بيدها .

يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجرىء الذى فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقا خاطفاً ورعداً قاصفاً يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

الفهرس

رقـــم الايداع بدار الـكـتـب ٤١١٠ / ١٩٧٨

مطبعة الامانة — ٣ شارع جزيرة بدران ـ القاهرة

